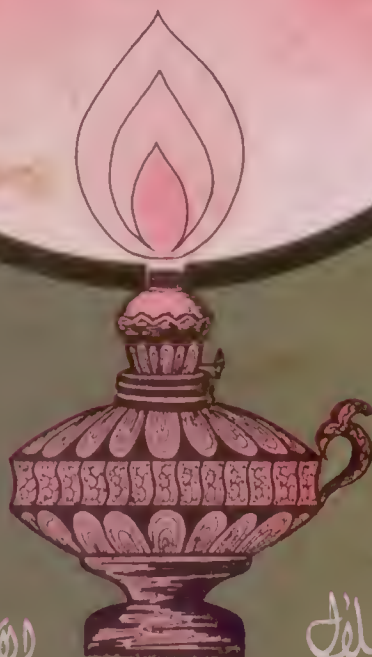


يحيى
موسوعة
فلسفية

أبو العلاء المعري



تأليف
الأستاذ خليل سرفال

منشورات
مكتبة الهلال

بيروت

فِي سَبِيلِ
مُوسُوعَةَ
فَلَسَفِيَّةَ

أَبُو الْعَمَلَاءِ الْمَعْرِي "مُبْصُرَيْنِ عَمِيَّانِ"

تَأْلِيفَ

الدُّمَانُ خَلِيلُ شَرْفِ الدِّينِ

شبكة كتب الشيعة

مَنْشُورَات

دَارُ عِلْمِيَّةِ الْهَلَالِ



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

جميع حقوق النقل والاقتباس
وإعادة الطبع محفوظة
لمكتبة الهلال

١٩٧٩

بيروت - اللعازرية - شارع الأمير بشير - تلفون: ٢٩٣ ٩٤٦

بيروت - شارع عمر بن الخطاب - تلفون: ٢٤٩ ٢٦٩

صرب: ١٥٥٠٣

« كان أبو الطلاء برجا يرتفع وحيدا
عاليا ، في مفازة البشر • وفي
الجهات كلها يرى ويتلأأ • • »
ادونيس

طرفا حياته : وجودان • • وجود مفروض
ووجود مرفوض • • •
وفوقهما عقل يحتضن كبرياءه • • وفكره • •
ليتأبى على ليلين :
ليل العمى • • في دنيا العماية • •
وليل الجسد في مستنقع الدنس • •
وحق لفيلسوف المعرفة أن يتجاوز عصره • •
وناس عصره • •
فليس لمثله • • مثل عصره • • ولا لعقله • •
مثل عقول الموتى • •
من بني جنسه • • •

عزأؤه الوحيد : انه لم يجن على أحد ..
وكذب الكثيرون .. على الواحد الأحد ..
وهو لم يكذب ..
وقلد الكثيرون .. وهو لم يقلد ..
فكان نبيا .. رحمانيا .. في عصر من الظلام
وقوم .. من المجوس ...
وعزأء قرنه .. انه ضم بين المطلع .. والختام:
ثأثرين أكبرين .. بل رافضين أوحدين :
أبا الطيب .. وأبا العلاء ...

مقدمة

ظاهرة العصر :

كان طبيعيا أن ينهار كل شيء في العصر العباسي الثالث (القرن الهجري الرابع) كدولة ومؤسسات ومجتمع * وأن يزدهر — في الوقت نفسه — كل شيء من أشياء الفكر ، فتبلغ الفلسفة أوجها ، ومعركة علم الكلام نهايتها ، والشعر قمته ، والنثر أعلى مراقي بلاغته ، وأتق صورته ، فأصبح وكأنه سيففساء ترصع بها جدران الأدب العربي وسقوف منزله ، بالرغم من أن سكان هذا المنزل بدأوا يغادرونه واحدا بعد واحد * . أما العلوم وهي الوجه الآخر للفكر ، فقد حققت في هذا العصر نصرا مبينا ، لا سيما في ميادين التطبيق والممارسة ، وانعكاس كل ذلك على الانسان العربي في تفكيره وسلوكه ،

ونتاجه : أي في حضارته . .

هاذا الازدهار الفكري الحضاري كان - كما يقول ابن خلدون - ظاهرة طبيعية بعد قيام الدولة ، وابان تمازج العرب ، أصحاب العصبيتين ، بغيرهم من الأمم ذوات الحضارات العريقة . ثم أخذهم عنها عاداتها وتقاليدها ، ومعطيات فكرها ، وهضم كل ذلك (١) وتمثله واغنائه وتأصيله ، وبتعبير آخر : تعريبه بكل ما في كلمة تعريب - هنا - من تفرد واصالة وشوق الى الافضل . .

وكانت نقطة التحدب ، أو قمة العطاء في هاذه الدائرة الذهبية ممثلة بهاذا العصر أو قريب منه ، كما كانت القمة نفسها نديرا بالانحدار الوشيك ، اذ ما لبثت أن تخلخلت وتصدعت ومال بها حملها نحو الحضيض السحيق . فهوت رغم تماسكها زمنا امتد حتى ابن رشد في الفلاسفة والمعري في الشعراء ، والبيروني في العلماء ، وابن عربي وابن الفارض في الصوفيين .

(١) نحن نكتب وفقا للقاعدة الجديدة القائلة : ما لا يلفظ لا يكتب ، وما يكتب فبصورته الاصلية لا البديلة مثل كتبوا هاكذا ، لكن هاؤلاه لم يوافقو ومنهم ليلد الموجودة في المستشفا ، للتفصيل اطلب كتابنا « ابن خلدون » دار الهلال - ١٩٧٩ - بيروت - او انظر اخر هذا الكتاب . المؤلف

هاذا ~~التفصيل~~ أو هاذا التصديق يعتبره ابن
خلدون كذلك ظاهرة طبيعية مثلما اعتبر التماسك
نفسه * فظاهرة الازدهار تحمل دائما في طيات
أسرارها ، جرثومة الانهيار : فكما ان لكل شيء
نهاية كذلك هي حال الازدهار .. والمجتمع
كالانسان خاضع لقانون التطور الطبيعي * فلم
يكن غريبا أن يرافق الانهيار الازدهار أو يتولد
عنه وفقا لمبدأ العلة والمعلول أو حتمية ظهور
الشيء متى توفرت أسبابه ..

وأبو العلاء - اذن - ظاهرة طبيعية من حيث
مفهومنا لقانون التطور في المجتمع والفكر * اذ من
الطبيعي أن يمثل أبو العلاء في عالم الشعر والفكر
والنثر منتهى درجات التطور التي بلغها العرب عصر
ذاك * وأن يمثل في الوقت نفسه جرثومة ذلك
الانهيار *

لاكنه ظاهرة غير طبيعية ، أو هو نسيج وحده ،
حين نقيسه بانسان عصره : رجل دين كان هاذا
الانسان ، أو سياسة ، أو فكر ، أو سلوك ..
هنا يبرز أبو العلاء انسانا مغايرا .. متميزا
انسانا رافضا : أي جديدا ..

وهنا تكمن ثوريتها .. وبالتالي تخطيه لزمته
ومجتمعه وأوضاعه ..

وحين تتخذ الثورية عنصر الرفض الارادي
العملي أو التحدي المسلح - كما فعل المتنبي -
يصبح معها الثائر مضطرا الى التعاطي مع الغير
بنفس أسلحة هذا الغير : من مرونة تبلغ أحيانا حد
الانكسار .. ومن ميكيافيلية تنحدر الى مستوى
التزلف أو التآمر .. أو التراجع من أجل الهجوم ..
والهجوم من أجل التراجع الاستراتيجي ، كما
يقول عسكريو اليوم ..

فالفاية تبرر الواسطة عند بعض الثوار
الميكيافيليين العاديين ..

والمتنبي لم يستطع الا أن يكون بعض هاؤلاء ،
في بعض المواقف وبعض الظروف .. مع علمه بأن
ناس عصره ، لا سيما الحكام منهم « أحق بضرب
الرأس من وثن » فقد تعاطى مع أكثرهم . من
أجل تغييرهم ؟ ربما .. ولكنه انحدر مرارا الى
أقل من مستواهم ..

وعذره ، عندي ، انه انسان ، كان يريد - شيئا

ما - في ثورته * * فخانته أدوات هذه الثورة ، وان
لم تخنه شجاعته وابطأه وعناده * *

وحين عبر ، بالحرف الناري ، وحرقة البطل ،
عن تطلعاته وانكساراته اكتسبت ثورته ، أو
ثوريته ، صفاتها الاصيلية ، وعوضت عن خسائرها
المادية ساعة انقلبت انشودة « رولانية » يفتيها
الثائرون ، وأهزوجة يرتلها المغامرون * * فعبرت
- هاكذا - من دائرتها الزمنية الضيقة ، من دائرة
التشردم * * لتدخل دائرة الفن * * وراحت تنز
جراحا * * وتنبض حياة * * وديمومة * * *

أما ثورية أبي العلاء فكانت من نوع آخر ،
لعله أشمل وأبعد مدى * *

لم يتعامل شاعرنا مع ناس عصره ، ليكشفهم أو
يغيرهم أو يستغلهم ، أو يصل من خلالهم كما فعل
المتنبي - على عظمة وايجابية ما فعل أبو الطيب -
بل رثى لهم ، وتعامل مع نفسه أولا * * ثم مع
الوجود مباشرة * * فبدا له الوجود بالنظر التألمي
الثاقب : سخيفا ورائعا في آن : سخيفا عندما
ينقلب المسخ بطلا في غفلة من الزمن ، ويظن القزم
نفسه عملاقا * * ويتصرف كل منهما على هاذا

الاساس .. سخيّا حين يزيّف الحكام وظيفتهم
فينقلبون جلادين للشعب بدل أن يكونوا أجراءه ..
سخيّا يوم يرى رجال الدين يمشون في الناس
بأثقالهم وأوزارهم وصغارهم .. ويتخذون من
الدين مطية .. مجرد مطية .. حتى يستدعي
الأمر الشك بالدين نفسه .. سخيّا عصر تنقلب
المقاييس ، وتتطاحن القيم ، والقيمون عليها شاهدو
زور ، وأعلامهم في معيار الشرف والانسانية أدناهم ،
بل أقربهم في طباعه الى طباع البهائم ، وسعورة
الكلاب ...

ورائعا .. حين يرفض العقل كل هاذا .. أو
يتحرر من كل هاذا .. فينقلب انسان هذا العقل
نموذجا .. بعد أن كان ظلا ، ورسمًا بعد أن كان
اسما وبضعة من حياة .. رائعا .. لحظة يحس
أنه قادر على التعبير والتغيير .. ويحاول .. يحاول
التفجير .. والتدمير .. لا يبقي ولا يذر .. وكل
سلاحه : لا سلاح سوى العقل — الكلمة ، والكلمة —
القنبلة .. كل سلاحه : موقف .. ولا حياد ..
وسخرية .. ولا تجريح .. ورثاء .. ولا بكاء ..
ألا نسمع من خلال أبي العلاء صوت سقراط
يقارع السفسطائي غلوكون الحجة المسخ بالحجة

القدوة .. وبين سؤال ساخر وبديهيّات لا يجيب
عنها غلوكون بسوى الصمت العاجز .. تنفجر
المهزلة - المأساة ؟!

وغلوكون أبي العلاء هو الوجود والموجود ..
والغيب والمصير ، وما وراء الحجاب .. هو السر
والطلسم والعالم الاكبر والحلم السراب ..

لاكن أبا العلاء يعبث بالسر ويلهو بالطلسم
ويهتك ما وراءهما ويفضح اللعبة .. فينكشف
اللاعبون ..

ولكن الوجود قائم على استمرار اللعبة واحتجاب
اللاعبين .. في مسرحية كونية أشبه بمسرح الدمى ..
تحت عنوان : عبثية الحياة .. أو لعبة العبث ..

هنا يبدو الشاعر ثائرا لا بوجه البشر بل بسر
وجود البشر .. لا بالانسان المشوه ، وقد جعلوه
أحققر من ذبابة .. بل بالسبب المجهول الذي أدى
الى تشوييهه .. ثورته اذن ليست على أرض الواقع
بل على .. المجهول من أمر هذا الواقع ..

عمى .. ولا تشاؤم :

أما عماء فلم يكن هو السبب الاول والاخير في

ما يسمونه تشاؤما علائيا .. وحري بنا أن نسميه
شكا و « قرفا » : عنصران كونا نواة رفضه .. بل
كان عماء الحافظ المباشر .. فوراء هذا الحافظ نفس
قلقة لو أعطيت ألف نور .. في ألف مشكاة لما حادت
عن عنفها المدمر .. وحرفها - اللهب ، تحرق به
شواذ الاشياء .. ولا تطمئن الا على ركام الرماد ..
والأعمى - بعد كل هاذا - يتصور الاشياء
ضبابا ، والألوان بلون الرماد ..

لو أتيح لأبي العلاء أن يبصر لتجسدت أمامه
البشاعة ولبصق عليها .. دما .. لكن دون أن
يزيد شيئا .. فقد أعطى - بهاذا - كل شيء ..

كانت البشاعة صورة تحكى عنها الاساطير
عنده .. فتقرع أذنيه .. ويتقزز منها الكيان
الشاعر .. وها هي تبرز واقعا مرئيا بالعين ..
والعين تحدد الابعاد .. وتعين الاطار .. غير انها
لا تدخل الى الاعماق ولا تسبر ما وراء الصورة
من تهاويل وظلال وحقائق .. فليسقط الافتراض
اذن ما دامت الباصرة حاسة ضعيفة السلاح ..
مهزوزة الرؤية .. وما دامت البصيرة تحل مكانها
.. ما دامت ترى بنورانية أشف وأنفذ وأبعد ..

أريد أن أقول ان الذين يردون نقمة أبي العلاء
على الكون والكائن في عصره الى عماه ، وانه لو لم
يكن أعمى لتغيرت الحال غير الحال .. هاؤلاء
متسرعون ، ان لم أقل مخطئون ..

صحيح ان العمى بلاء مادي وأي بلاء . الا أنه
— عند الملهمين — ليس سببا أول لرفض الوجود ..
والوجود ..

كثيرون ممن فقدوا أبصارهم استبدلوها برؤيا
بصائرهم .. وأقبلوا على الدنيا اقبال المبصرين ..
وأبدعو في العديد من مجالات الحياة والفكر ..
وعاشوا عيشة راضية مطمئنة ..

هوميروس كان أعمى .. وطه حسين كان أعمى
.. وبشار كان أعمى ..

وسيرة هؤلاء لا تنم عن تشاؤم كابن الرومي
المتشائم المتطير .. المبصر ، بل عن تقبل للحياة ..
واقبال عليها .. وأحيانا عن ثورة وغضب سلبي
مدمر .. وهاذا لا يسمى تشاؤما .. ناهيك ببشار
الضحك الساخر .. المجدد المبدع .. المقبل على
الحياة .. وموائد الحياة .. اقبال الوقح الشره ..
الأكل ..

فلماذا ينسب هاؤلاء تشاؤم أبي العلاء الى عماء؟
ثم لماذا يسمونه تشاؤما؟ .. لماذا لا يردون السبب
الى نفسيته وتكوينها .. الى بسيكولوجية هذا
التكوين .. وعلاقة هاذا الكائن « النظيف » اذا
صح التعبير بعصر هو من أوسخ العصور العربية ..
أو هو بداية تردي العرب في حمأة العفن والدنس
.. ومستنقع الظلم والذل والهوان ..

لماذا لا يسمون ذالك التشاؤم المزعوم قرفا
وصل بأبي العلاء حد الفثيان .. أو تمردا انتهى
به الى الشك القاتل .. أو فهما أصبح لحقيقة
الأشياء .. انتهى بفيلسوفنا الى درجة أو حالة
تشبه الكشف الصوفي .. لكنه كشف لا يتجلى فيه
الله أو يحل .. بل هو كشف علائي تتعرى فيه
الحقائق مما لحق بها من زيف وزور وبهتان ..

ثم تقذف بكل عريها على عدسة العقل والحواس
فيتلقاها الحدس العلائي فيعبر بها الى دنيا الوضوح
الواضح أو الفاضح لا فرق فاذا بها تؤذي الأذن
العربية التي ما اعتادت سوى الرنين الأجوف
والصدى المزور ..

وقبل هاذا لماذا لا يربطون بين امامة العقل عند

أبي العلاء ، أو نبوة هذا العقل ، وبين عصر لم يضع فيه شيء كما ضاع العقل . . وعلى يد أدعياء العقل وأدعياء الدين . .

عما قليل وبعد قرن من الزمان سوف يكرس الغزالي هذا الضياع العقلي ، فيطلع علينا - بكل جرأة المؤمن المفلق - بنظرية الاتفاق والعادة مبطلا السببية الطبيعية : أساس كل عقل وفلسفة وعلم . . هاكذا مجانا ولوجه عقيدته الاشعرية ودفاعا عن المعجزة . . كأن المعجزة لا تبرر الا بانكار مبدأ هام هو مبدأ السببية الطبيعية الذي قامت وتقوم عليه العلوم جميعا ويتمحور حوله الكون نفسه منذ فكر أرسطو حتى اليوم . . .

لو فعلو ذلك وتبينو الموقف العقلاني العلائي الكامن وراء نقمة أبي العلاء وثورته وشكه ، لما قالو : انه العمى . . وانها النزوة العاطفية المتقلبة ، والشعور بالذل والعجز أمام الآخرين . . عوامل قادت أبا العلاء الى أن يخبط في ظلماء الحياة ، ووعثاء السفر على درب الحقيقة الطويل . . فغادرته ريشة في مهب الريح . .

كلا . . لو نظرو نظرة أعمق لحقيقة هذا

الانسان ، وموقفه من الحياة والأحياء ، وثقافته ،
وعصره ، لما قالوا انه انسان متشائم وكفى . . فهذه
صفة عابرة وحالة لا تدوم . . وهي تعبير انشائي
أكثر منه فلسفيا . . على أي حال . .

والواقع ان أبا العلاء في صباه وقبل أن يتلقى
الصدمة - الالهانة في مجلس الشريف المرتضى في
بغداد ، وقبل فقدته لأبيه ، ثم أمه ، كان غير متشائم
على الإطلاق ، أو على الأصح ، غير انطوائي . .
كان يستمتع الى الغناء ، ويؤم مجالس الطرب ،
ويحضر المنافسة العقلية في لعبة الشطرنج ، ويعطي
رأيه في اللعبة واللاعبين ، ويصف تأثره بالغناء ،
ولو لم يفهم كلمات الاغنية أحيانا ، كما حدث له
حين استمتع - في حلب - الى مغنية تركية . فقال
واصفا تأثره بحلاوة صوتها :

« ورت كبدي ولم أفهم شجاها »

فكيف يكون عماه - أساسا - هو مصدر تشاؤمه؟
ثم كيف يسمى اعتزاله وحبسه الطوعي لنفسه
تشاؤما ويأسا؟ . . . وهو الذي كانت داره المتواضعة
في المعرة محجة العلماء ومقصد الطلاب من كل

نوع ، يعطيهم ولا يمل العطاء . . ويستمعون اليه
ولا يملون الاستماع . . كأنهم يريدون في حضرة
شيخ صوفي . . ينسون أنفسهم في غمرة الجذب
والانجذاب . . لم يكن ذلك اذن تشاؤما ولا يأسا . .
كان قرفا وبعدا عن التفاهين والمتاجرين بالناس
والعقائد والاديان ، ونأيا عن الظلمة الطفلة
مصاصي دماء المساكين والضعفاء . .

كل ما في الأمر اننا - في أكثرنا - مؤلفون
اتباعيون ، لا دارسون أو محققون . . لا نجرؤ على
قول الحقيقة في ما نؤمن انه حقيقة ولو تجلت لنا
في ضمائرنا نقية واضحة . .

ونحن لا نفهم شعراءنا ومفكرينا - مع الأسف -
الا كما فهمهم الآخرون من عمالقة التاريخ وكبار
مزوري الحقائق ومشوهي الشخصيات وعلى
الأخص القدامى منهم الذين جاؤوا قبل عصر
الاستشراق ، هذا الاستشراق الذي مهما قيل فيه
وفي أصحابه ومهما روي عن تحيزاتهم واقليميتهم
ونعراتهم الصليبية فلأكثرهم يعود الفضل في
اكتشاف شخصيات عربية واسلامية كانت حقائقها
مغمورة تحت بحر من التعصب الذميم وسوء الفهم .

من هؤلاء الذين اكتشفهم المستشرقون
وتلامذتهم العرب : الجاحظ كما يجب أن يفهم ،
وابن الرومي ، وأبو حيان التوحيدي والمتنبي * *
والمعري * * لكن هاذا الاخير لم تعقد حول حقيقته
وحقيقة معتقده دراسات مستفيضة جادة الا في مطلع
هاذا القرن وعلى يد طه حسين بالذات ثم بنت
الشاطيء * * ومن نحا نحوهما * *

ولعل طه حسين كان أقرب الجميع الى فهم أبي
العلاء نظرا لتشابه شخصيتيهما وثمانتهما في العمى
المادي والذكاء والعقلانية والنقد والسخرية وفهم
الوجود * *

هاذا في الأدب :

أما في العلوم كالرياضيات والكيمياء والفيزياء
والبصريات والميكانيك والفلك والجغرافيا فلم نكن
لنعرف عن علمائنا فيها ولا عن اكتشافاتهم العلمية
شيئا عن طريق مؤرخينا القدامى الذين مرو بهاؤلاء
مرور الكرام * * حتى جاء الدارسون المحققون من
عرب وأجانب أمثال بروكلمان ومرغيلوث ودوزي
وجب وجورج سارطون وبوتول ثم ساطع الحصري

ومحمد عبد الله عنان وعادل زعيتر وقدرى حافظ
طوقان .. الخ .. فعرفنا من يكون الرازي وابن
الهيثم والخوارزمي والبيروني وابن خلدون ، وما
هو فكرهم وطرائق بحثهم ومكتشفاتهم ومدى
اسهامهم في تكوين نواة الحضارة الأوروبية ..

وحتى اليوم لا يزال باحثونا الاحرار واقعين
تحت تأثير وهيمنة النقاد السلفيين :

هاك مثلاً : رواد الشعر الحديث أصحاب النظرة
الانقلابية في مفهوم الشعر العربي شكلاً ومضموناً
وروحاً . ما هو حالهم أمام أولئك النقاد
الكلاسيكيين ؟

ان وصمة العار وتهمة الأمية والنقل عن الغرب ،
والخروج على المؤلف أقل ما ألصق بهاؤلاء الرواد
من تهمة . لماذا ؟

لأن فلانا من كبار المشنمين وغلاة الكلاسيكيين
قد شدد النكير عليهم ، واتهمهم ظلماً وعدواناً
بالأمية والجهل بالبلاغة العربية واللفة الفصحى
وقوانين الشعر وحدوده - كأن للشعر حدوداً
وقوانين .. - والحقيقة هي أن فلانا هاذأ أولى

بتهمة الجهل من أولئك : الجهل بمنطق التطور
وسنة الحياة وأبسط مفاهيم الشاعرية الحديثة
الحقة وان الوقوف عند حدود الخليل وقوانينه
ايقاف للحياة وتجميد للروح وكفر بحتمية البعث
في الشعر والقيامة للشعراء من بين الركाम وقبور
الموتى ...

الشاعرية يا هؤولاء ، ونقولها مع نقاد الشعر
الحر ومنظريه : الشاعرية لم تعد - اليوم - صناعة
ألفاظ وصب قوالب وموسيقى خارجية تنبعث من
خلال قصبات الأوزان والحروف المجوفة أو
الجوفاء .. لتحدث جرسا كلاميا مكرورا
ومسطحا ..

الشعر - يا هؤولاء - هو ذاك النور القدسي
الذي يشع من الكائن الانساني الملهم .. والنور
- كما نعلم من علم الضوء - حين يتأطر أو يصطدم
بجسم ما ينكسر أو ينعطف .. ولا يلبث أن
ينطفئ ...

هاذا هو شأن النور أو الضوء المادي فكيف
بالنور المنبعث من الكائن الانساني .. أي ذاك

النور الالاهي الذي لا يمكن أن يحده حد أو تمسك به قافية •

والشاعرية الحقّة — حتى في النثر الفني — فلذة حياة تسكب سكبا ايقاعيا في كلام ايحائي • • بل في حروف ونقاط مشعة • • وهاذا ما نسميه بالقيم التعبيرية والظلال النفسية المحيطة بها ، وكيفية التعامل التقني مع التجربة الشخصية ذات الارضية الواقعية المعاشة والابعاد الانسانية • • فاذا بالقصيدة الحرة ، أو قصيدة النثر ، أو النثر الشعري — سمها ما شئت — مع قياس الفارق — تصبح ملكا للانسانية جمعاء ، حين تترجم ، وملكاً لكل فرد من أفراد الأمة قادر على التذوق والكشف ، ومشاهدة نفسه من خلالها • •

والحديث هنا ذو شجون ، نقف به عند هذا الحد ، كي لا نقع في الاستطراد • أما في الدين ، فالمصيبة كانت أكبر ، حين تجرأ المفكرون المتحررون من فلاسفة وعلماء كلام على دخول متاهاته ، وفك أسرارهِ ، لكثرة ما داخلته الأسرار والأساطير والافكار الحشوية الغريبة ، والاسرائيليات المدسوسة ، وبالتالي جعله ديناً عقلانياً أو دين

حياة وانسان ونظام . . فكان ان اصطدم هأولاء
— ولا يزالون حتى اليوم — بحماة الدين من
السلفيين النصيين ، أي بالذين لا يقولون بالعقل
طريقا الى فهم النص القرآني ، والحديث النبوي ،
أو يقولون بأن العقل أداة محدودة وبالتالي عاجزة
فيكتفون بأخذ النص عن السلف كما هو ، فلا
يؤولون ، ولا يجتهدون . . ولا . . يعقلون . . عفو
عقلائهم وما أقلهم . . .

فأبو العلاء — بهذا المقياس العقلي لا الاتباعي
أو السلفي — يبرز شخصا آخر بعقلانيته وتفرد
واحتضانه لذاته ووجوده وإيجابيته . . فلا يأس
من عمى . . ولا تشاؤم . . ولا انطواء . . . يبرز
انسانا مقبلا على الحياة . . من خلال الذات . .
والصعاليك من الاحياء . . من خلال المرادين . .
والدعاة . . من طلابه . . وما أكثرهم . .

ونعني بالاقبال على الحياة : من خلال الذات .
توقه الشديد الى اغناء هذه الذات بجميع معارف
عصره . ليطل بعد ذلك على الاجيال في كل زمان
. . وكأنه يقول لهم : هاذا هو نموذج الانسان
العاقل المثقف العف الشاعر . . فكونوه . .

حتى محابسه الثلاثة * * لم تكن - بعد هدا -
وفي نظري على الاقل - محابس ضيقة مظلمة
يائسة : كانت محابس مشعة بألف نور * * *

فمن سويداء الباصرة الى ضياء البصرة * *
ضياء يكشف المجهول * * ويعري الحقيقة * *
ويسخر من اللعبة واللاعبين * *

انه الموقف نفسه يقفه المبصرون في كل زمان
ومكان :

فولتير * * بودلير * * مولير * * اكليروس * *
ملوك * * جلادون : أسماء * * أسماء * * أسماء * *
أشباه ونظائر * * أضداد * * اتصال النار بالنار * *
لا أدري لماذا تقفز الى ذهني * * كل هذه المتضادات
كلما ذكرت أبا العلاء وعصره * * وناس عصره * *
لعله الموقف نفسه * * والنظرة نفسها * * والحقيقة
نفسها * * ربما * * والفضل دائما لأبي العلاء :
لأنه المتقدم زمنًا، والاعلى صوتًا والاشد انبهارا
أمام الفاجعة * * * أو لأنه الالصق بها * * والاعمق
شعورا مأساويا * * * وبعد * * فالعمى - المبصر
ليس محبسا * * ولا قيذا * *

والمحبس الثاني : الجسد . . لم يعد - هاكذا -
سحبسا . . فجسد تحرر اراديا من كل لحم . . ودم
. . وجنس . . جسد شفاف نوراني يسير به عقل
وبصيرة في عوالم فوق التراب . . والدنس . .
والشهوة . . جسد لا يمكن أن يكون شيئا ثقيلا . .
ولا قيذا . . ولا سجنا . . ولا شيئا من هذا . . .

والمحبس الثالث : المنزل . ماذا يضم ؟ كل ما
يضمه : عينان منطفئتان مبصرتان وراءهما عقل
نفاذ . . وجسد شفاف . . واذا الكل : مشكاة
متوهجة تهب النور لفاquديه . . والمنزل المتوهج
معها ، ينقلب محبة ومنازة ، يضج كل يوم بحركتي
العطاء والأخذ . .

فكيف يكون مثل هذا المنزل - المورد صومعة
نائية ، أو دهليزا مظلما ؟ وبالتالي سجنا ؟ . .

التسميات لم تعد تهيم . . ما دام أبو العلاء
خارج محاسبه دائما . . يتعامل مع السوى باستمرار
. . حتى نفسه ينظر اليها من خارج ، مسلطا عليها
أضواء العقل ، كاشفا غياهبها . .

أما الخيال . . فحبلى نوراني له أول وليس له
آخر في مخيلة أبي العلاء . .

وهو خيال مميز عن الخيال العربي * * انه
خيال تشخيصي مسرحي قادر على خلق العوالم التي
يشاء * * والشخصيات التي يريد * * وتوزيع
الأدوار * * يطرح عليه ابن القارح سؤالاً دينياً
عادياً في رسالة عادية * * فإذا بالسؤال وصاحبه
ينقلبان موضوعاً مسرحياً نقدياً ساخراً على الطريقة
العلائية ، والمسرح : الجنة والنار * والبطل رب
الارباب * * والخاتمة : لا خلاص * * ويسدل
الستار * * ليرفع بعد ألف عام عن : الكوميديا
الالهية : حفيذة رسالة الغفران !!! لم لا ؟ * *

— ان خيالا كهذا لا يمكن أن يكون خيال سجين
عادي * * مفلق * *

الشاعرية :

تميزت شاعرية أبي العلاء بخصائص شوهت
بعضها آفة العصر : فسيفساء البلاغة الترصيفية ،
والتعلق الشديد بلعبة المجانسة والازدواج
والتلوينات الصوتية المختلفة ، والتباهي بالقدرة
على نبش قبور الكلمات الميتة ، لا بقصد احياؤها
ونفض غبار الموت عنها بل بقصد تحنيطها ونقل

رفات رميمها من ضريح التاريخ .. الى ضريح
 القالب التعبيري الاجوف ... وحين أدلى أبو العلاء
 بدلوه برز ماتحا كبيرا بل نابشا قديرا للدفين
 الاقدم من مواتها .. ولعل الخيال هو الجاني هذه
 المرة الى جانب الثقافة اللغوية المعمقة ، حين راح
 يرفده بالكثير الغزير من ميت الألفاظ ووحشي
 الكلام ومستغرب الصيغ والتراكيب .. حتى انه
 راح « يعبث » باللغة في اللزوميات وبالشعر ..
 وينحت ويخترع ، ويضع لروى القافية نظاما
 خاصا .. وهو في كل هذا أقرب الى عبث الوليد من
 « عبث الوليد » ... فالبحتري يظل في ديباجته ولا
 سيما « سينيته » العملاقة أرفع من أن يعبث باللغة
 أو يلهو كما عبث أبو العلاء في لزومياته ، ولها ...
 وهو يعترف بأن ذلك كان لزوم ما لا يلزم .. انها
 آفة العصر والفراغ القاتل .. ولا شيء سواهما ..
 على أن هذا العبث لم يكن صفة دائمة في
 اللزوميات ولا خاصة ملازمة لأبي العلاء في كل
 شعره فهناك قصائد تأملية وأخرى ساخرة ، وثالثة
 ناقدة متفلسفة يبت فيها جميعا حكيمته وآراءه
 ومواعظه .. وهو قد أحس بذلك حين قال : أنا
 وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري ..

كأنه يعتبر الحكمة أو الفلسفة في الشعر أرفع
من الشعر أو هي تخرج به عن دائرة « شاعرية »
البحثري المسطحة في نظره . . .

ومهما كان موقفنا من رأي أبي العلاء هاذًا ، فإن
له فلذات شعرية يقف بها الى جانب كبار الشعراء
العالميين ، لما فيها من توثب وصفاء وحرارة نفس
انساني وشطح ملحمي يرود الاسطورة ويتخطى
التاريخ . . ولما يغلفها أو يشع فيها من روح قلقه ،
وشك ، وعمق احساس بالفاجعة . . أو المصير
المأساوي للانسان . . وسخرية الاقدار . . وعبثية
الحياة . . وجبريتها . . وقسوتها . . وتفاهتها . .
والانسان ذالك العملاق - القزم ، رهن لمشية
مجهول قد يكون حقيرا وقد يكون خطيرا . . . لا
يدري من أين جاء ولماذا جاء . . والى أين سينتهي
وكيف ؟! هل هو حقا جدير بالبكاء أم بالرثاء ؟!
يقولون له : اعمل . . لمن يعمل ؟! . . لنفسه وهو
لا يدري من أمرها شيئا مهما تفلسف . . . انها
طلسم اضطر الى مرافقته بجسد لا يلبث معهما الا
قليلا . . أم لغيره . . وهذا الغير أحقر من أن
يضحي من أجله . . أم . . . حول هذه الاسرار حوم
شعر أبي العلاء ، وهام بروحه وفكره فوقها

وتحتها محاولا - كالخيام - اختراقها .. فلم
يستطع .. وحسبه انه دنا منها أكثر من غيره ..
ورنا بكل ألق فكره وروحه اليها .. فتجطم ..
وكان التعبير الملهم عن كل ذلك التحويم والتهويم
أحرفا نارية في أسلوب ثوري ، وروح ساخرة ،
لا سيما أمام الذين يزدون المأساة الكونية مأساة
.. من سخفهم وحقارتهم .. أو من ظلمهم
واستبدادهم وتشويهم للحقيقة ، وللآخرين ..

ترى .. هل هي طبيعة الوجود وأساس تكوينه
.. أم أن الوجود كله فساد في فساد .. وكارثة
مركبة ؟ .. وما الاديان والشرائع سوى وسائل
تخدير لهاذا الانسان الحائر المحير ، اخترعها القوي
لاستغلال الضعيف ؟! ثم بنى الحضارات تعبيرا عن
هاذه الحيرة القاسية والقلق المدمر .. وما لبث أن
دمرها بيديه ، وبنى على انقاضها حضارات أخرى
.. وهاكذا ... تراه دائما هاربا من نفسه الى
نفسه .. خائفا منها اليها .. يعبد الأوثان ..
ثم يحطمها .. يوجد الاديان .. ثم يكفر بها ...

أتراه جادا أم هازلا ، وفي أي الحالتين جده
وهزله ؟ ...

وأين تكمن قيمته * * وفنه * * وابداعه ؟ * * *
وأين يكمن سخفه وهزله وتجديفه ؟ * * * هل هو
مخترع اللعبة * * أم انه لعبة اللعبة ؟ * * *

أمام كل هذا وقف أبو العلاء الشاعر المتأمل * *
فأبصر ما لم يستطع المبصرون أن يروه * * أو لعلهم
رأوه * * لكنهم أغمضو عيونهم عنه زلفى * * أو
دجلا * * أو رياء * * اما هو فقد أبصر * * ولم
يفض طرفه ، لأنه لم ير مثلهم بعينين * * بل رأى
بأصفرين * * وكان صادقا مع نفسه حين كذبوهم
مع أنفسهم * * وربهم * * وحقيقتهم * * *

على يد أبي العلاء خرج الشعر من دائرته
القديمة الضيقة : دائرة العبث والفردية والقبلية
والقدح والمدح والارتزاق الرخيص * * ليدخل
دائرة أوسع، مداها الكون والانسان حيث يتم
تسجيل المواقف من القيم * * والحقائق وكشف
الزيف فيها بقصد التغيير * * وهاذه هي الدائرة
العالمية للشعر * *

لم يعد الشعر على يد أبي العلاء وسيلة للميش
الرخيص أو الكذب المغلف والشتم الصبياني
الأخرق * * بل أصبح وسيلة للفكر المتأمل وبوتقة

يسكب فيها الوجدان الصادق * * * وتعبيرا مشعا عن
حقائق الوجود والموجود ونقدا ساخرا لكل ما
يشوههما * * لحظة انبثق ألقا نورانيا من الكائن
الانساني المشع فكرا ووجدانا وحسا * * لقد قرب
من ان يكون فلسفة * * أو شيئا من فلسفة * * *

اذ ما هي الفلسفة ان لم تكن وقفة تأمل ومحاولة
فهم لهاذا الكائن الذي يظن نفسه جرما صغيرا ،
وفيه انطوى العالم الاكبر على حد تعبير أبي العلاء
نفسه : أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى
العالم الاكبر * *

ولذلك الكون الرهيب بكل دقائق صنعه وروائع
نظامه * * صحيح ان الموقف العلائي - حيال كل
هاذا - لم يكن واحدا * * ولا كان نهائيا * * أو
مترابطا شيمة الفلاسفة الذين يلزمون أنفسهم
وفكرهم بخط واحد * * وخطة متماسكة * * ومبدأ
موحد أمام الحياة والأحياء والمصير * * بل كان
أبو العلاء فيلسوف اللحظة * * أو اللحظات التي
سرعان ما تذهب بقدر ما تتوتر * * وتتوتر بقدر
ما يلتهب الوجدان بالتجربة * * ويتأثر الكيان
بألم المعاشة * * وجبرية المصاحبة لانسان العصر

الذي فقد آخر صفة من صفات الانسانية ، فأصبح
وحشا ضاريا •• أو حملا وديعا يسير به الذئب
أينما أراد •• حتى لقد أصبح الذئب في نظر
أبي العلاء كائنا اراديا أفضل بكثير من ذلك الانسان
المسير الحقير •• وأصبح عواؤه أحلى وقعا في أذني
الشاعر من صوت ذلك الانسان :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى
وصوت انسان فكدت أطير •••

هل من حادثة في شعر أبي العلاء ؟ :

كثر الكلام في هاذة الايام عند الباحثين والنقاد
الطليعيين عن الحادثة في الفكر والادب والفلسفة
ولا سيما الشعر العربي المعاصر • واذا كان
كلامهم عن الشعر القديم، قيموه على أساس مدى
حدثه أو مقدار المعاصرة فيه أو ما يسمى قوة
الحضور ومبلغ الديمومة والاستمرار في شكله
ومضمونه • وعلى هاذا كان بديها أن يسقط
الشكل بكل مقدساته القديمة تقريبا ، والمضمون
نفسه تهاوى تحت مطرقتهم التي لا ترحم • وحق
لها ألا ترحم لكثرة ما في شعرنا القديم من محنطات

وموضوعات تافهة طالما أذرت بالفكر العربي والكرامة الانسانية ، ومن أشكال قدست وعمل بها زمنا طويلا بالرغم من تطور الحياة العربية والبيئة العربية تطورا أصبح من غير الجائز معه ولا المقبول أن يستمر الشعر العربي بكل مفاهيمه وأشكاله البالية . ومن حسن الحظ أن الشعر العربي قد خطا منذ مطلع هذا القرن خطوات الى الامام انسجما مع معطيات الثقافة العالمية الجديدة . لكنها كانت خطوات خجولة سرعان ما تجرأت في مطلع الخمسينات وراحت تشق دربها شقا جسورا . وها هي الآن تقف بكل كفاءة على أرض الواقع والمنطق مخلقة وراءها غبارا كثيفا طمست فيه معالم الشعر القديم ولم يكد يظهر منه شيء ذو خطر . .

وفي الستينات حاولت مجلة « شعر » أن تمسك بزمام التيار التجديدي وتنظمه داعية الى قيام دولة الشعر الحديث على أنقاض أمبراطورية الشعر القديم لكنها تعثرت وتهافت لا لأن التيار المضاد كان أقوى بل لأن القائمين عليها تمادوا في مفهوم التحديث لكي لا نقول أخطأوا حين أرادوا أن يقف الشعر العربي على قدم المساواة مع الشعر الأوروبي اذا جاز التعبير ولا سيما الشعر الفرنسي .

أي أن « يغربوه » فكانو ملكيين أكثر من الملك ووقع الشعر العربي الحديث أو مفهوم الشعر على يديهم، في التقليد والمحاكاة والبعد عن الاصاله *

والنقل والمحاكاة - كما هو معلوم - شيء والتأثر بالتيارات العالمية شيء آخر ..

أما مجلة « مواقف » فقد أمسكت بالزمام عن جدارة أكثر - كما يخيل لي - حين راحت « تعقلن » الأشياء وتنظر القيم الشعرية والتعبيرية تنظيرا منطقيا يشارف الفلسفة في عمقه وأصالته * وهي حين تتكلم عن « الحداثة » في الشعر - وقد أفردت لها عددا يكامله (١) - تتكلم عن ثقة واختصاص وتنطلق من منطلق عربي سليم وإخلاص وفهم للحداثة عرف بهما صاحب المجلة أدونيس وعقدت له الريادة فيهما منذ زمن ..

وبعد * ما هي الحداثة باختصار (وفي الشعر خاصة) ؟

- أن يكون الشاعر ساخرا من كل زيف وكل انحراف في التراث ..

— أن ينشغل بفنه بدلا من انشغاله بالآخرين * *

— أو هي حسب تعبير ياسر داغستاني (١) :
« الانفصام عن الماضي وازدراء التراث » وهذه
تهمة من الغير ، وليست مبدأ من مبادئهم * غير
انها — على أي حال — تهمة مقبولة لديهم اذا
كانت تعني : الخلق والابداع ، شرط ألا يكون
ذلك الانفصام كلياً *

— والحدائق كلف بالسبر وريادة آفاق لم يردّها
السابقون *

— وهي التمرد على الثوابت المطلقة * أو ما
سميناه مقدسات في الفكر والفن والمجتمع والدين
والسياسة ، محرم تجريحها أو النيل منها أو
ابطالها * *

— وهي تلك الروح الرومانسية العاشقة لكل جديد
الباسقة على كل قديم المتعبدة في هيكل الطهارة
والجمال ، والعقل ، تعبدا صوفيا صافيا لا دنس
فيه ولا اثر ، ولا عودة * * *

(١) انظر مجلة « مواقف » عدد ٣٥ ص ٩٧ *

— وهي بالتالي ذلك الاحساس العميق بالقهر الكوني ، ومأساوية الوجود •

— وهي التعبير عن ذلك الاحساس العميق بلا جدوى الحياة وتوليد الحياة •• فكل شيء فيها لا جديد فيه •• ومن يولد الحياة (أي من يتزوج مثلا) فكأنما يكرر الحياة •• والتكرار شيء بليد •• فكيف بتكرار التكرار !!

وهذا صلاح عبد الصبور — أحد رواد الحداثة في مصر — يعبر عن هذا الاحساس بقوله :

يتمحور بعض المكرورين الى أصوات. ••

أو أنغام أو أشعار ••
لاكن هدير الزمن الدوار ••
يبتلع الزامر والمزمار ••
يتحور بعض المكرورين الى طبل منفوخ •••
لكن ما تبثه الصحف اليومية والحوليات ••
ينساه التاريخ •••

وهاكذا يسقط بنا صلاح في هوة العدم القاتم (خاصة في مجموعته الاخيرة : الانبياء المهزومين) بلا أمل •• ولا سبيل الى أن نترك رسما على جدار

أو خطأ فوق ديباجة أو نغما في أوتار كمان .. أو
ذكرى في خفقات قلب .. أو خفقة طين على وجه
الفضاء على حد تعبير صلاح نفسه .

ويعود الشاعر من رحلته مع الناس والاشياء
— تماما كما عاد المعري من رحلة الشباب الى بغداد —
عاد ليغمض عينيه عن كل ما رأى وسمع وتألم
وفجع — عاد ليجر هذه المرة في ذاته وقبل أن يمل
الابحار غنانا أله وفجيئته بكل ما ومن حوله بعد
أن أمدته الرؤيا الانسانية ببعض قبس نوراني
مؤمن بالانسان .. الانسان الاسير المستغل المهان ..

عاد الشاعران لينسجا لنفسيهما عالما شعريا
خاصا وزاوية خاصة يطلان بها على ... تلك
القصور الاسطورية التي حلم بها عبد الصبور
ورثى لها أبو العلاء .. كيف هانت على الشعراء
الأذلاء ..

لا أدري لم ساقني الكلام عن الحداثة الى هذه
المقارنة بين شاعر المعرة وشاعر الطليعة في مصر ...
لعله هاجس الحداثة وتأكيد وجودها عندهما ..
لكن لم لم يقفز الى ذهني عبد الوهاب البياتي مثلا

أو بدر شاكر السياب أو نازك * * انها آفة التهافت
في الشاعر أو تداعي الافكار أو شيء من هذا القبيل
* * * وليغفر لي القراء ذلك * * * بقي أن يعبر
المعري عن مثل ذلك الشعور المأساوي وهذا
الهاجس الذي يبلغ بصاحبه حد الهذيان * * أو
المرض * *

وأبو العلاء بلغ به الهاجس حد المرض * *
والشعور بثقل الحياة وكآبتها ومجانية العيش فيها
والغموض الأبله الذي يلف البداية والنهاية * *

لن أدلل هنا بمقتطفات من لزومياته أو شذراته
لكنني سأفعل ذلك عند نشر صحائف شعره بين
يدي متذوقا ومحللا * * مكثفيا - هنا - بالقول ان
الحدثا عند المعري تكمن في :

١ - الموقف المبدئي الرافض لكل الاعراف والعلائق
البشرية ، وهو موقف يسلخه عن عصره
ليقذف به الى العصور الحديثة : عصور
التأمل والضياع والرفض * *

٢ - امتياز شعره بالصدق والعفوية وتوتر
الصورة وضبابية الالوان الصادرة عن انسان

أعمى لكنه مبصر .. وهنا تكمن مأساوية وجوده التي عبر عنها الشاعر مجسدا احساس الشاعر العميق بالغربة والضياع والعزلة القسرية التي جاهد كثيرا ليحد من قسريتها وقسوتها باستقباله للمعجبين والدعاة والطلاب ، وان كان ذلك منه على حذر وتريث شديدين ..

٣ - ابتعاده عن كل ما يزري بكرامة الشاعر ودخوله مملكة العقل والاحتماء به ، وريادته لآفاق وموضوعات شعرية لم يتطلع اليها خيال شاعر من شعراء عصره . كما في رسالة الغفران رغم الاثقال اللغوية التي رزح تحتها ذلك الخيال العلائي المجنح

وبقدر ما قرب أبو العلاء مما نسميه اليوم معاصرة أو حداثة أو تخط .. أو قوة حضور .. في شذراته وقصائده التأملية الحرة .. بقدر ما سقط في اللزوميات سقوطا مريعا .. حيث بدا أسير العصر وتعقيدات العصر اللغوية التي تبلغ أحيانا كثيرا حد الأحاجي والطلاسم في عبث كلامي لا طائل تحته .

انها آفة العصر كما قلنا .. لم يسلم منها
أبو العلاء .. بل على العكس كان عليه ألا يسلم
منها لتحمية من أدعياء اللغة والأدب وليحاربهم
بسلاحهم وليقتل بها أوقات فراغه - وما أكثرها - .

٤ - أبو العلاء من الذين جار عليهم القدر
وسحقهم المصير المحتوم . فهل نعتبره - في هاذ
الحال - بطلا مأساويا ؟

كلا . فليس كل من جار عليهم القدر يعتبرون
أبطالا مأساويين .. والا لكنا جميعا أولئك الابطال
لأننا - كلنا - ضحية القدر .. البطل المأساوي هو
الذي يخرج من بيننا شاهرا سيفه أو قلمه أو
شاحذا روحه وقلبه وعقله مستعدا للوثوب على
.. القدر .. متحديا المصير هازئا بذلك القهر
الكوني والجبر الحياتي الذي يراد له . البطل بتعبير
آخر هو صاحب ردة الفعل أمام المحنة .. صاحب
التحدي الكبير .. بالكبرياء .. بالرفض ..
باحترضان العقل .. فكيف اذا كان هاذ البطل
شاعرا .. سلاحه العقل والخيال والحرف الناري
المتوفز !؟

كان أبو العلاء بحق هو هَذَا البطل المأساوي الذي أفرزه القرن الرابع الهجري وكان شاهداً على انهيار كل شيء فيه .. ممثلاً قمة التحدي أمام ذلك الانهيار وذلك الضياع .. بالكلمة الشاعرة الساخرة .. من انسان أقام لنفسه عالماً خاصاً ومفهوماً خاصاً للحياة والأحياء .. ألا يستوي في هَذَا وكبار الأبطال المأساويين في تاريخ الأمم والأديان : كابليس الرمز المأساوي للتحدي البشري أمام لعنة القدر وسوء المصير ، أو النبي إبراهيم رمز الطاعة أمام الابتلاء .. وانتيفوني رمز الانسحاق الحتمي تحت قدمي المصير المفجع ؟! (١) وأوديب في نهايته المفجعة الكئيبة الذي قابل التحدي بالتحدي مع علمه بأن هَذَا التحدي هو جزء من مصيره وان كبريائه ستنتهي به - وقد انتهت - الى الدمار واليأس والموت الزوأم ..

في رأيي ان أبا العلاء لا يستوي معهم فحسب بل يفوقهم مأساوية وتحدياً واشعاعاً وتأثيراً .. كان أبو العلاء أكبر محاور للموت يتحدى به الحياة

(١) انظر كتاب نقد الفكر الديني د. صادق جلال العظم ص ١٠٦ - ١٠٧ دار الطليعة - بيروت ١٩٧٠ ط ٠ ثانية ٠

وعدمية الوجود... ألا يكفيه بهذا حادثة في الروح
والموقف والسلاح؟!...

أبو العلاء والفلسفة :

هل صحيح قولهم انه فيلسوف الشعراء وشاعر
الفلاسفة ؟ أم ان هذا النوع من الازدواج اللفظي
أو الطباق هو الذي استهوى مطلق هذا القول دون
أن يراعي الحقيقة ؟

الواقع ان في هذا القول كثيرا من ظلال الحقيقة،
لا سيما اذا قلنا مع بلايك بأن « الشعر أداة لنقل
الفلسفة » . خاصة تلك الفلسفة الصوفية القائمة
على التوحيد بين الروح والجسد وبين الواقع
والخيال .

وما كان شعر أبي العلاء شيئا سوى ذلك : كان
كما نعلم أدواته الوحيدة للتعبير عن « تأملاته » في
الكون والكائن والدين والمصير . أي تعبيرا عن
فلسفته الخاصة ونظرتة الى قضايا الانسان والمجتمع
والعادات والمقدسات . الا أنها فلسفة مضطربة اذا
جاز التعبير . أي انها لا تشكل عند أبي العلاء
نظاما موحدًا لآرائه ومواقفه .

أبو العلاء - بهاذا الاعتبار - فيلسوف اللحظة
أمام حقيقة من حقائق الوجود أو المجتمع : يراها
بكل صفائها وعمقها بعد أن يعريها من شوائبها
وستأثرها الكثيفة . فقد كان قادرا على الغوص
والكشف . . لكنه لم يكن قادرا على الاحتفاظ
بمكتشفاته وتنظيمها .

و حين أعلن هوغو وأتباعه من الرومانسيين أن
الشاعر نبي كان أبو العلاء أسبقهم بألف عام الى
اعلان ذلك : أعلن أبو العلاء نبوة العقل . وأعلن
هاؤلاء نبوة الشاعر . وهم ان اختلفو مع فيلسوفنا
في تقديس العقل الا أنهم لم يختلفو معه في نبوة
الشاعر . .

و واضح أنهم لا يعنون بالنبوة هنا ان الشاعر
صاحب رسالة لهداية البشر . . بل باعتباره انسانا
متميزا ، عليه أن يعاني ما عاناه الأنبياء من صراع
ذاتي وانسكاب روحي للحصول على نعمة الكشف
والإلهام . . معاناة قد تصل بالنبي الى أن يرى الموت
سبيله الأفضل الى المعرفة . .

والرومانسية كالفلسفة : سعي دؤوب وراء

الحقيقة ووراء المجهول • وتخطي ظواهر الاشياء
طلبا للوحدة العميقة •

فاذا كان أبو العلاء رومانسي النزعة بشكل
أو بآخر فهو فيلسوف بشكل أو بآخر • • ولكنه يؤمن
بالعقل اماما وهاديا ونبيا وهم لا يؤمنون فهو
— اذن — ليس فيلسوفا رومانسيا وحين يكفر
بالعقل كما كفرو وآمنو بالوحي والالهام دون
وساطة العقل كان مثلهم فيلسوفا • • •

وعلى هاذنا نستطيع أن نسميه فيلسوفا في رسالة
الغفران حيث تسلح بما تسلح به الرومانسيون
المحدثون : الخيال والنقد والهدم والتمرد على
القيم والمقدسات • • فيلسوف السخرية على
الأقل • •

أما في اللزوميات فهو ليس بفيلسوف على
الاطلاق حتى ولا بشاعر • • الا اذا عدنا العبث
اللفظي والنظم الكلاسيكي المعقد شعرا أو فلسفة •
هذا من حيث التقيد الأعمى بالقافية والروي •
أما حين يطغى العقل في اللزوميات على آلية التعبير
ويسيطر الفكر التأملية والعاطفة فان أبا العلاء

يرتفع عن مستوى التعبيرية المعقدة ويتحرر من ثقل اللغة الى ذروات الابداع حيث يروح يتعاطى مع الحقائق مباشرة . . مع الناس . . مع الله . . والوجود والمصير مؤمنا حيناً . . شاكا وساخرأ أحيانا . . دون عائق لغوي الا عائق الروي وما قبل الروي . . عاهة أو صفة لم يستطع أبو العلاء التحرر منها . . وكأنها - في رأيه - سلاح من أسلحة التحدي والاستعلاء . . كما سبق القول .

والشاعر يختلف عن الفيلسوف في أنه يدرس الأشياء كما هي وكما يجب أن تكون . . أما الفيلسوف فلا يهتم كيف كانت وما ستصبح بل يتناولها هي ثم يتناول جزئياتها ويبحث في ماهيتها ونوعيتها وعناصرها .

وليس أبو العلاء أمام الأشياء مفسرا ولا محللا بل هو كغيره من الشعراء متذوق ومتأثر ، ومسجل موقف قد لا يلتزم به . فهو ليس بفيلسوف بالمعنى الكلاسيكي الدقيق للكلمة

وخلاصة القول : ان أبا العلاء باعتباره شاعرا شخصانيا وعقلانيا أي انسانا « عائدا الى ذاته » متحررا من الماضي وكل ما ومن يمثل هذا الماضي ،

يبرز فيلسوفا كاملا بهاذا الاعتبار خاصة حين ينتهي الى رفض وجوده المأساوي لكنه يجد انه « ملقى في المحيط مجردا من كل مرسى » على حد تعبير أدونيس ملقى بلا اختيار .. منداح في وسط الدائرة الوجودية الجهنمية .. بلا أمل في العودة أو الخلاص .. وأبو العلاء يجد نفسه دائما في حالة التميز والتفرد واللائتماء .. انه انسان لا منتم بكل ما في هذه الكلمة من معنى فلسفي حديث وبهذا الواقع القسري الذي هو فيه .. أو الذي « لم يكن له شأن في اختياره » كما يقول هيدغر ، يجد أبا العلاء نفسه وجها لوجه أمام عالم عدائي يهدد ذاته باستمرار ، وعليه باستمرار أن يجابهه .. يرد عليه .. لا لكي يربحه .. بل لكي لا يخسر ذاته وعقله ..

وحسبه أنه حين يكون في دائرة الفكر والعقل والتأمل والحكمة والابداع يخرج نهائيا من دائرة الشعراء التقليديين الصغار ، ويقرب جدا من الفلسفة .. الفلسفة التي كانت ولا تزال تطرح هذا السؤال : من أين وإلى أين ؟ ماذا وراء الحجاب ؟ وهذا الانسان من هو وما مصيره . وهذا الوجود ما عناصره وما قيمته . والجواب : لا جواب ..

ويستمر اللهاث وراء السراب : الفيلسوف مغرور
بالعقل والشاعر مبهور بالحس وبين غرور
الفيلسوف وانبهار الشاعر وقف أبو العلاء معلنا
نهاية القبول في الشعر العربي ، وبداية الرفض أو
التساؤل (١) .

ألا يعتبر أبا العلاء بهذا .. وبهذا خاصة
فيلسوفاً .. لا سيما حين يفني ذلك ويهذي به ..
لاكنه - انصافاً للحقيقة - فيلسوف بلا طريقة أو
منهج ..

أذن هو فيلسوف الشعراء الى حد كبير ، وشاعر
الفلاسفة اذا صح التعبير .. وليسمح لنا أدونيس
أن نسميه فيلسوفاً بلا طريقة بعد أن أعطاه كل
خصائص ومنطلقات الفيلسوف ما عدا الطريقة
والمنهج (٢) .

المؤلف

-
- (١) على حد تعبير أدونيس ، انظر كتاب ديوان الشعر العربي -
الكتاب الثاني - لادونيس ص ٢٨ - ٢٩ - المكتبة العصرية
صيدا - بيروت ١٩٦٤ .
(٢) ديوان الشعر العربي - الكتاب الثاني - ص ٢٩ .

حياته :

طرفاها ربيعان • • بينهما خريف بارد • •

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان التنوخي • ولد في معرة النعمان (١) يوم الجمعة عند مغيب الشمس أواخر شهر ربيع الاول سنة ٣٦٣ هجرية ، ١٦ كانون الاول ٩٧٣ ميلادية • أصيب بالجدري بعد أربعة أعوام من مولده فذهب بصره : غشي اليمنى عينيه بياض وكانت نادرة (٢) ، وانطفأت اليسرى تماما وكانت غائرة • • لم يعرف من الالوان سوى الاحمر وهو لون الثوب الذي

(١) وهي بلدة صغيرة في سوريا قرب حماه وشيزر • منسوبة الى النعمان ابن بشير الانصاري والي حمص الذي تدبرها زمن معاوية
فنسبت اليه •
المؤلف

(٢) بارزة •

ألْبسه يوم أصابه الداء (١) وقد ظل وجهه مجدورا طوال عمر امتد - على كره منه - نيفا وخمسة وثمانين عاما : (من ٢٧ ربيع أول ٣٦٣ الى ١٣ ربيع أول ٤٤٩) * أما جسمه فكان نحىلا منذ النشأة ، وزاد نحولا أيام لزم محابسه الثلاثة وحرم على نفسه أكل اللحوم من أي نوع ، وبيض الحيوان ولبنه ، شيمة قدامى فقراء الهند و دراويش الصوفية * ودامت نباتيته سبعا وأربعين سنة ، ألد حلاوة لديه التين وأشهر طعام العدس * .

أهله وعشيرته :

جمعت أسرته الى كرم المحتد سمو المنزلة * فقد اشتهر منها نجباء تقلدوا مناصب قضائية عالية في المعرة و حلب * من هاؤلاء جده سليمان قاضي المعرة ، ثم أمير بكر عم أبي العلاء ، ثم أخوه أبو محمد عبد الله والد أبي العلاء ، ثم أبو المجد محمد أخو أبي العلاء الأكبر * وكان شاعرا متزهدا * وأخ آخر هو عبد الواحد وكان شاعرا غزلا * .

(١) مع ان هذا الثوب كان بلون العصفر وهو اقرب الى اللون الاصفر منه الى الاحمر *

وكان من أبناء اخوته وأحفادهم علماء وفقهاء
وأدباء وخطباء أبرزهم محمد بن عبيد الله الذي
أدرك عم أبيه أبا العلاء وروى عنه أشعاره وكتبه *
وكان قاضيا في المرة الى أن دخلها الصليبيون سنة
٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) (١) وقبل كل هاؤلاء أبوه
عبد الله الاديب اللغوي الفقيه الشاعر الذي أحاط
ابنه بعناية خاصة نظرا لعماه المبكر ولما توسم فيه
من الخير والنجابة فعلمه مبادئ اللغة العربية
وآدابها وأشعارها * فلا عجب أن يكون أبو العلاء
ما كان ، فهو من بيت علم وجاه ودين وأدب ولغة *
وقانون الوراثة يحتم ذلك * فالعجيب اذن ألا يكون
أبو العلاء كذلك * لا سيما وهو بين عمومة وخوولة
متأثر نجيب * فكيف « تمشي القوافي تحت غير
لواء » هذه العائلة الكريمة الشاعرة ؟ أيمن أن
« تسلبها العز » قبيلة مهما عظم شأنها وبأسها ؟
وهل يسير أحد في بادية السماوة الا وقومه له
حافظون ؟ (٢) وحق لفتى كأبي العلاء أن يفتخر
بأهله وعشيرته من آباء وأجداد وأخوال * حتى
جدته لأبيه كانت من رواة الحديث والشعر *

(١) انظر دائرة المعارف م ٤ ص ٤٥٦ *

(٢) انظر ابو العلاء المعري - اعلام العرب ٢٨ د بنت الشاطيء ص ٧٠

أما أمه، فما دار حديث في الشعر العربي على لسان
 شاعر بأحلى ولا أحنى مما دار على لسان أبي العلاء * ولا
 كان أشهى ولا أشجى من رثائه لها * انه حين يذكرها
 فكذكر صوفي حل فيه ربه أو كمتعبد متعبد يسبح
 بالآء خالقه صبح مساء ولا يمل * يذكر كيف كانت
 تأخذ بيمناه * * وكيف كانت ترعاه في بلواه وكيف
 كانت في طفولته تحتضنه وتسمي عليه حين ترضعه،
 وتقرأ آيات الكرسي وتعوزه من الشيطان (١) *

أما فجيعة فيها فقد كانت تاريخية قضت على
 آخر أمل له في الحياة وكانت نقطة التحول الكبرى
 في مسيرته وسيرته * فهي التي قرر بعدها الاعتكاف
 ولزوم الحبسين : الثلاثة * * * مطلا من خلال
 الفجيعة على الناس * * يراوده طيفها كلما عاوده
 الحنين الى الصفاء والنقاء والبراءة * * حنين بدأ
 في غربة أبي العلاء في بغداد أملا واعدة * * موصولا
 بين حياتين * * وما أحلاه ! وحنين من جانب واحد
 بعد فراقها الابدى * * وما أمره * * !

حنين تطفئه « قطرة من ماء المعرة * * » لكن

(١) المصدر نفسه ص ٢١ *

الحنين الى الطيف بعد الموت لا تطفئه ينابيع الدهور
.. ويبقى الطيف ماثلا نصف قرن .. وفؤاد
الابن لاهثا كل العمر .. بلا عزاء ولا سلوى ..

ويا سلوة الايام موعذك الحشر ..
موعد والله بعيد ... (١)

كنيته :

لم يتزوج أبو العلاء فلم يأت العلاء الابن ..
فمن أين جاءته هذه الكنية ومن كناه ؟

التاريخ لا يذكر شيئا من أمر هذه الكنية مع ان
التاريخ قديما وحديثا لم يهتم بأديب أو متفلسف
كما اهتم بأبي العلاء .. غير ان أحدا من المستشرقين
أو المؤرخين العرب القدامى لم يهتم بكشف الغطاء
عن كنيته وأسبابها .. وأغلب الظن انه هو الذي
كنى نفسه بها ليرمز بها الى استعلاء نفسه بنفسه
دون أن يكون الولد هو الذي يعليها أو يسمو بها ..
واذا تباهى الوالدون بما ولدو ، فان المعري يتباهى
بالعلاء — الرمز ، لا بالعلاء — الولد ...

(١) اما اسم هذه الام فقد فتحنا طويلا في امات المراجع فلم نعث
عليه سوى انها « بنت محمد بن سبيكة » المصدر السابق ص ٢٩

وإذا كان غيره من أهل أو معجبين قد لقبوه به
فقد أشارو الى حقيقة هذا الانسان الذي أراد أن
يكون له كباقي الناس لقب أو كنية تشير الى شرف
ذاته وسمو نفسه فقبل بالعلاء ابنا وهو الذي لم
يرض بالدون يوما .. وأنا أصر على أنه هو الذي
لقب نفسه بأبي العلاء أو أوصى به ، وان كان هو
قد علق على ذلك بقوله :

دعيت أبا العلاء وذاك مين
ولكن الصحيح أبو النزول

فهاذا من باب التواضع وميل منه الى احتقار كل
ما يشير الى الكبرياء أو التسلي المصطنع والتباهي
الاجوف بالكنى والالقب ..
أستاذوه :

يكاد يكون أبو العلاء أستاذ نفسه قبل أي أستاذ
آخر فلم ير مستمعا الى من يأخذ عنهم فحسب بل
مناقشا ومحاورا ، سوى أبيه وأمه وجده وجدته (١)
وأخيه فقد أخذ عن هاؤلاء أخذ الراهب الخاشع
المستوحى ، ينهل من معينهم رحيقا دينيا صافيا

(١) وهي أم سلمة بنت الحسن بن اسحاق ابن بلبل المعري .

وتربية عالية تتناسب وشرف منزلته وكريم محتده
وتتلاءم مع ما كان عليه من سمو نفس وعلو همة
وطموح لا حدود له . .

أما مشايخه ومقرؤوه القرآن فكانوا جماعة ممن
شهبوا بالقراءات السبع * ورواية الحديث أخذها
على أبي زكريا بن مسعر المعري وأبي الفرج عبد
الصمد الضرير الحمصي ، والقاضي أبو عمر
عثمان الطرسوسي وسواهم من رواة الحديث الثقة
في المعرفة وحلب .

وعلوم اللغة والنحو عن أبيه أولا ثم عن أبي
بكر بن مسعود النحوي وبعض كبار تلامذة ابن
خالويه في حلب (١) .

وحين رأى منه أبوه ذكاء حادا وذاكرة عجيبة
واستعدادا تاما للتلقي تشجع ومضى به الى حلب
— وفيها أخواله القضاة الاغنياء — وهناك تلقى
النحو على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي .

(١) تذكر بأن ابن خالويه كان هربيا لسيف الدولة فهو من علماء اللغة
والادب الكبار . ولم يكن احد سواه يستطيع الوقوف في وجه
المتنبي من حيث التبصر في اللغة والادب والنجوم .

لهذا الأخير كان أحد رواة أبي الطيب • فروى مرة
على مسمع أبي العلاء في حلب وكان لا يزال حدثا
نصيده للمتنبى مطلعها :

أزائر يا خيال أم عائد
أم عند مولاك انني راقد
فلما وصل الى قوله :

أو موضعا في فناء ناحية
تحمل في التاج هامة العاقد

اعترضه أبو العلاء الفتى وقال :

أو موضعا في فتان ناجية (لا فناء ناحية) (١)
و حين تحقق ابن سعد وجد أن الصواب ما قاله
أبو العلاء • •

وهذا دليل على قوة ذاكرة أبي العلاء الذي بكر
في الحفظ والخزن • ولا عجب فهذه ظاهرة
عالجها علماء النفس الحديث فوجدوا أن الحواس

(١) الفتان غشاء من آدم يوضع فوق الرجل والناجية الناقية السريعة
انظر : أبو العلاء المعري د • بنت الشاطئ - اعلام العرب رقم
٣٨ ص ٣٧ - مصر ١٩٦٥ •

إذا تعطلت احداها أغنى ذلك الحواس السليمة
الباقية * لا سيما العينان : هاتان الباصرتان
المنفتحتان على العالم الخارجي بكل أشكاله وألوانه
وحرركته وصخبه وهمسه وإيحاءاته * إذا تعطلتا
وفرتا التأثير بكل هذا وانقلب الأعمى مبصرا بشكل
آخر : مبصرا بأذنيه ويديه ومنخرية * بل بكيانه
كله * فيرى ما لا يراه المبصرون * وعلى نحو
أعمق * *

أما الذاكرة أو الحافظة وهي قوة هائلة من
قوى النفس فنصيبها أوفر من انطفاء العينين *
لأن ما يعطل غناها بالمعلومات انشغال العينين
المبصرتين بالخارج * برؤية الأشياء والتعامل
معهما * *

وهاكذا ما رأينا ولا سمعنا بضرير موهوب الا
وكانت ذاكرته من أقوى وأغنى الذواكر حفظا
واستيعابا * حتى اننا لا نكاد نصدق - نحن
المبصرين - ما يروى عن أعاجيب ذاكرة أبي العلاء *
لا سيما اذا كنا نجهل علم وظائف الاعضاء وارتباط
عصب كل حاسة بمكان ما من الدماغ وتأثيرها
الارتباط على الدماغ نفسه وبالتالي التفكير * *

حيث يبدو الدماغ - كشرطي المرور - منهمكا دائما بتوزيع حركة السير • والعينان طريقان هاما يكثر عليهما السير والازدحام • • فاذا سدتا هان على الشرطي تنظيم السير على الطرق الفرعية الأخرى على ما فيها من زحمة وحركة • • •

وسواء كان تصحيح البيت الآنف الذكر دليلا على قوة ذاكرة أبي العلاء أو دليل فطنة ودقة ملاحظة فان أخبار ذاكرته العجيبة تملأ كتب السير وجعبة الرواة • ونحن لا ننكر عنصر المبالغة من أجل التشويق في ما يذكره الرواة عن ذاكرة أبي العلاء الا أن الثقة منهم يروونه على وجه التأكيد والجزم :

أعاجيب الذاكرة :

رحل أبو العلاء في صباه الى انطاكية وتردد الى مكتبته يحفظ ما فيها • قال ابن منقذ وأكد ابن العديم في « الانصاف » :

كان بانطاكية خزانة كتب وكان الخازن بها رجلا علويا ، فجلست يوما اليه فقال : قد خبأت لك غريبة ظريفة لم يسمع بمثلها • • صبي دون

البلوغ ضرير يتردد الي ، وقد حفظته في أيام
 قلائل عدة كتب ، وذلك لأنني أقرأ عليه الكراسة
 والكراستين مرة واحدة فلا يستعيد الا ما يشك فيه ،
 ثم يتلو علي ما قد سمعه كأنه من محفوظه . قلت :
 فلعله يكون يحفظ ذلك . قال : سبحان الله ! كل
 كتاب في الدنيا يكون محفوظا له ؟ وان كان ذلك
 كذلك فهو أعظم . . . »

ومهما يكن من أمر هاذي الرواية وصحتها وان
 انطاكية يومها كانت بيد الروم (١) فهذا لا ينفي
 ما تواترت الاخبار به عن غرائب تلك الذاكرة :

قال بعض مؤرخيه ما خلاصته : ان أبا العلاء
 استمع في الشام الى شاعر دمشقي (لعله الواواء
 الدمشقي توفي حوالي « ٣٩٠ هـ ») فأعجبه فصاح به
 قائلاً : أنت أشعر من في الشام . . رتمر الايام
 والاعوام فيستمع أبو العلاء وهو في بغداد الى شاعر
 يلقي قصائده فعرفه من أسلوبه ونفسه فصاح به
 قائلاً : ومن في العراق . . . فاذا به الشاعر ذاته
 الذي استمع اليه في دمشق !! . .

(١) من سنة ٢٥٨ اي قبل مولد ابي العلاء الى ٤٧٧ وبعد وفاته
 بـ ٤٨ سنة .

وقيل انه مر قبل اعتزاله ببادية السماوة أو
بادية الشام (١) وحين وصلت به راحلته الى شجرة
ضخمة في الطريق قال له مرافقه : ها هنا شجرة
فاخفظ يا سيدي هامتك قليلا * ففعل ..

وتمر الايام والاعوام وتقتلع الاعاصير الشجرة
الضخمة * وتموت الراحلة * لكن أبا العلاء
لا يموت شيء في ذاكرته * يمر يوما في رحلة
ثانية على الطريق نفسها وحين يصل الى المكان
الذي خفظ فيه هامته تحت الشجرة يكرر الحركة
نفسها * فيتعجب المرافق ويسأل سيده عن السبب
فيقول : لأن ها هنا شجرة * أليس كذلك ؟ فينكر
المرافق ولكن أبا العلاء يصر * ويبحث المرافق في
الرمال فيجد جذع الشجرة لا يزال * * * !! مع ان
أبا العلاء يخاطب الانسان قائلا :

سميت انسانا لأنك ناسي * *

أما هو فلا ينسى * * لعله من طينة فوق مستوى
البشر * * ربما فالمواهب والحدوس الكبرى ترتفع
بالانسان عن مستوى العادي من البشر * * * بل هو :

(١) وكان في طريق عودته من بغداد الى المعرة *

في الواقع ، قانون التعويض « الذي يمنح الاحساس الداخلي ما فقده الاحساس الخارجي من قدرات .. » (١) .

أما سهولة قوله الشعر الصعب فحدث عنه ولا حرج وهذه اللزوميات بين أيدينا خير ناطق على ذلك . وإذا كان أبو العتاهية « يتناول الشعر (السهل) من كمه » كما قال ، فإن أبا العلاء يتناول الشعر الصعب من جعبته وذاكرته الزاخرتين بكل غريب من غرائب المضامين والأساليب والقوافي » .

روى بعض مؤرخيه حكاية خلاصتها : ان أهل حلب سمعو بذكائه وهو صغير ، فسافر جماعة من كبارهم لينظروه ويمتحوه . فقال لهم : هل لكم في المقافاة في الشعر (أو التقفية المعروفة حتى اليوم) فجعل كل واحد منهم ينشد بيتا ، وهو ينشد من حفظه بيتا على قافيته ، حتى نفذ حفظهم فقال : أعجزتم ان يعمل الواحد منكم بيتا عند الحاجة اليه على القافية التي يريد ؟ قالو : فافعل أنت ذلك . فجعل كلما أنشده واحد منهم بيتا ،

(١) انظر : ابو العلاء المبري : منأمل في الظلمات لادوار امين البستاني ص ٤٢ سلسلة المصابيح - بيت الحكمة - بيروت ١٩٧٠ .

أجابه من نظمه على قافية البيت ، حتى قطعهم
جميعا ! (١) .

في الواقع ليس عجيبا ولا مستغربا كل هذا من
أعمى كأبي العلاء سلاحه في ذلك الزمن السيء
ذاكرته يخترن فيها ما يدخره ليوم اللقاء .. مع
الشهرة والمجد الادبي والاستاذية و .. التحدي ..
الكبير ..

ثم ان الطريق الوحيد لدى الاطفال العميان في
الشرق - كما يقول طه حسين - « هو طريق الدرس
وتحصيل العلم » فينصرفون بكل همتهم الى ذلك ..
ليخرجو من ظلماء الحياة وظلم الاحياء موفوري
الكرامة مزودين بهذا السلاح الماضي الذي لا يقهر
ولا يفل .. وهذا تماما ما فعله المعري ونجح فيه
الى حد بعيد ..

وفي شمالي سورية نزل أبو العلاء في دير
الفاروس وأخذ عن أحد الرهبان العلماء بعض

(١) انظر كتاب : ابو العلاء المعري للدكتورة عائشة عبد الرحمن -
بنت الشاطئ - اعلام العرب رقم ٣٨ ص ٤٠ - وزارة الثقافة
والارشاد القومي - المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٥ .

مبادئ الفلسفة اليونانية وعلوم الاقدمين مما جعله يشكك في حقيقة دينه والاديان الاخرى * كما وقف أبو العلاء على تعاليم المسيحية واليهودية وقوفا عابرا ، فأضاف كل ذلك الى ما كان يعرفه عن الديانات الشرقية من مجوسية وزارادشتية وصابئة وبرهمية (١) * * مما كون لديه مواد شكه فيها جميعا * * ولعل ذلك عائد الى عدم تعمقه في دراستها ، أو لما كان يراه من زيف رجال الدين في عصره واختلافهم وتناحرهم واتخاذهم الدين وسيلة للكسب الرخيص والتفجير بالناس * * واستغلال الضعفاء منهم * *

قلت قبل قليل ان أبا العلاء كان أستاذ نفسه بمعنى ان الذين أخذ عنهم كانوا قلة والوقت الذي أنفقه معهم كان قليلا بالنسبة الى الوقت الذي أمضاه في بغداد وحلب واللاذقية مع الوراقين ودور العلم وخزائن الكتب يستمع الى خازنيها يقرأون عليه الكراريس تلو الكراريس وهو يلتهما التهاما * * ثم ينطلق من منزله في بغداد « حاضرة الدنيا » كما يصفها الزجاج محاورا كل صاحب علم أو فرقة أو ناد * * ولو قدر له أن يستمر في ارتياد نادي

(١) والبراهمة من اهل الهند يحظرون ذبح الحيوان ويجحدون الرسل *

الشريف المرتضي ويبقى الود والاعجاب موصولين
بين الرجلين - كما كانا باديء الامر - لكانت لأبي
العلاء صولات وجولات في عالم الشعر والأدب
والنقد ولكان أفاد واستفاد كثيرا .. غير أن
أرستقراطية النادي حالت دون ذلك وحولت مجرى
حياة أبي العلاء : فمن اقبال على العلم والحياة في
بغداد ومن صحبة ودودة لأهلها الذين كانوا كما
يصفهم الزجاج « ملائكة الارض للطافة أخلاقهم
وخفة أرواحهم » وتبغدهم وشدة اهتمامهم
واعجابهم بأبي العلاء .. من كل هذا الى نفور
« وقرف » واعتزال .. ولا نقول .. الى يأس
وتشاؤم وانقطاع .. فقد كان أبو العلاء بعيدا
عنها كلها وهو الذي أقبل بكل جوارحه على الدنيا
والناس لا لستر العجز والعاهة الماديين كما يقول
معظم المؤرخين ، بل للتحدي ولاثبات ان من كان
مثله طموحا وعلائية لا تقعه عاهة ولا يفل من
عزمه قضاء ..

كانت الدنيا اذن أمه الثانية ومعلمته .. كما
كانت همته لا زيد من العلماء ولا عمرو من
الشيوخ .. كان الكراس والكتاب والوراق والخازن
والنادي وفوقها جميعا همة وموهبة لا تغلبان ..

هي في الواقع موارد علمه ومصادر ثقافته وامتيازه .
تلامذته :

ان انسانا كهذا الانسان الطليعة ، المتعدد
جوانب الثقافة ، الجريء ، المتحدي ، المؤمن ،
الكافر ، الرافض لشتى مغريات الحياة والسياسة ،
وحتى دعوة داعي الدعاة الفاطمي للقدوم الى
القاهرة ، الأعمى ، البصير ، الصريح الهازل الساخر
الذي لا يخشى في الحق لومة لائم ولو كان في حضرة
نقيب الأشراف . .

انسان كهذا لا بد أن يملأ الدنيا ويشغل الناس
تماما كسميه المتنبي، وان يكون له محبوبون وكارهون
وناقدون وان يتتلمذ على يديه الكثيرون . . حتى
اليوم - وآثاره لم تكتشف كلها - نجد من يجادل
فيه : هل هو فيلسوف أو بعض فيلسوف ، هل هو
أديب ولغوي وشاعر كباقي شعراء عصره . . وكل
من الناقد والحاقد والمعجب قديما وحديثا - أقر
له بالفرادة والأمتياز لما في أسلوبه ورمزه وروحه
ومواقفه من ثورية وانقلابية تخطت مقاييس عصره
وبرز عالمي الشعاعية - فتارة يقارنونه ببول فاليري

— كما فعل طه حسين — وتارة ببودليز * * وأخرى
 بكييتس « شاعر الموت » كما أرى أنا * * وتستمر
 أستاذايته عبر الاجيال * * أول تلامذته كان ابن
 أخيه « أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله قاضي
 المعرة ونسيبه جعفر بن صالح وأبو الحسن علي بن
 عبد الله متولي أوقاف المسجد بالمعرة وولده أبو
 الفتاح وجماعة أخرى من بني هاشم لم يذكر ابن
 العديم أسماءهم (١) وهؤلاء كانوا تلامذته كما
 كانوا كتابه ينسخون له ما شاء من أمال وتصانيف
 وشذرات دون أجر * * الامر الذي شق على أبي
 العلاء فقابله مرارا بالشكر والثناء * *

وقد تتلمذ على يديه كثيرون أثناء اقامته
 القصيرة في بغداد * وكان في الخامسة والثلاثين *
 أما بعد اعتزاله فقد أصبحت داره مباءة لطلاب
 العلم من كل نوع يقصده بعضهم من المعرة
 وآخرون من حلب وكفرطاب والاندلس وتبريز
 وبغداد والانباء ونيسابور * وقد ذكر ابن العديم
 في كتابه (الانصاف والتحري) من أشهر تلاميذه

(١) انظر كتاب : ابو العلاء المعري : متأمل في انظلمات ادوار امين
 البستاني ص ٢٥ منشورات بيت الحكمة سلسلة البصايع
 - بيروت ١٩٧٠ *

هؤلاء ثمانية وأربعين استطاع أن يتحقق من أسمائهم وترك الباقيين فوق الحصر . . وممن ذكرهم علي بن المحسن بن علي التنوخي القاضي وهو من أقرانه وقد لقيه ببغداد وكان له صاحباً وصديقاً طول مقامه بها . وأبو زكريا الخطيب التبريزي من أعيان القرن الخامس ، والامام أبو المكارم عبد الوارث بن محمد الابهري . والفقيه أبو تمام غالب بن عيسى الانصاري الاندلسي . والخليل عبد الجبار القزويني . وأبو طاهر محمد بن أحمد الانباري . وأبو الحسن علي بن همام ونصر بن صدقة القابسي النحوي الذي رحل الى المعرة فلازم أبا العلاء. وقرأ عليه وأخذ عنه وكذلك فعل أبو عبد الله الاصبهاني وله صنف أبو العلاء كتابه « ضوء السقط » شرحاً لسقط الزند

كما كاتبه العلماء والوزراء وأهل الاقدار فلم يأبه بهم وأعطى من أراد منهم علماً ومعرفة واستفساراً ولم يأخذ شيئاً ولا خاف منهم تهديداً أو وعيداً . .

وعندما غيبه الموت وقف على ضريحه ثمانون

شاعرا يرثون ويبكون مرددين مع تلميذه أبي الحسن
علي بن همام :

ان كنت لم ترق الدماء زهادة
فلقد أرقّت اليوم من جفني دما (١)
مؤلفاته :

لم تكن عزلته الطوعية ورهنه نفسه لمحاسبه
الثلاثة قرارا سلبيا نتيجة فشله في بغداد - كما قلنا
في البداية - لا ولا هجرا للناس ويأسا منهم وزهادة

بالدنيا وأهلها .. بل كان ذلك ترفعا عن التعاطي
اليومي مع نوع من أهل السياسة والمجتمع
لا يقدرّون المواهب ولا يقربون أصحابها لأنهم خلوا
منها ، وبالرغم من حرصه على الابتعاد ما أمكن عن
مثل هؤلاء فقد جعل منزله مقصدا لطلاب العلم
وقضاء الحاجات ..

هاذا من جهة ومن جهة أخرى جعل من معتزله

(٩) اشارة الى ان ابا العلاء كان يهرم ان يذبح له الحيوان ليأكل من
لحمه لقرضه ورحمانيته .. انظر : ابو العلاء المعري متأمل في
الظلمات ادوار امين البستاني ص ٣٠ .

الطوعي كوة يطل بها على الناس والوجود
ومستراحا يطلق فيه لنفسه حرية القول والعمل ..
هاذا العمل ماذا يمكن أن يكون لأعمى مثقف سوى
التأليف والتصنيف وتسجيل الخواطر..؟ ..

يد له رحيمة على طلابه وسائليه .. وأخرى
له غزيرة على كتابه يملئ عليهم ولا يمل الاملاء ..
فلا مراجع يعود اليها ولا توقف لعودة الى مخطوطة
أو كراس .. الذاكرة الخصبة العجيبة هي المرجع
الأوحد يسترفدها فترفده .. حتى ليكاد كتابه
ينوءون بما يكتبون .. ثم ناء الزمن بما خلف
وصنف .. فضاء أكثر آثاره ..

آثار تجاوزت المائة عدا بين مجلد كبير ورسالة
لطيفة ولم يبق من بعضها سوى العنوان ..

أما المنشور منها فهو : ١ - لزوم ما لا يلزم أو
اللزوميات . طبع لأول مرة في بومباي سنة ١٣٠٣ هـ
١٨٨٦ م . ثم في مصر في مجلدين سنة ١٨٩١ وقد
اختار أمين الريحاني بعض اللزوميات ونقلها الى
الانكليزية ونشرها في نيويورك سنة ١٩٠٣ بعنوان

« رباعيات أبي العلاء (١) » وكرت بعد ذلك
الطبقات منها المحقق، وغير المحقق لهاثا وراء الكسب
الرخيص * *

يقول أبو العلاء في المقدمة : « ان القافية تلزم
لها لوازم لا يفتقر اليها حشو البيت » * * وبتعبير
آخر : يكرر أبو العلاء في القافية حروفا لا يفرض
تكرارها عادة في قواعد العروض * وقد جاءت
قصائد الكتاب مرتبة على حروف الروي ترتيبا
ابجديا * ولكل حرف أربع حالات من الحركات
الثلاث والسكون * يقول المؤلف : « وقد تكلفت
في هذا التأليف ثلاث كلف : الأولى انه ينتظم حروف
المعجم عن آخرها، والثانية أن يجيء رويه بالحركات
الثلاث والسكون بعد ذلك * والثالثة انه لزم مع كل
روي فيه شيء لا يلزم ، من ياء أو تاء أو غير ذلك
من الحروف » * وفي الكتاب - عدا ذلك التكلف
الثقيل - عظات وتأملات وحكم بالغة حبذا لو
أطلقها أبو العلاء على سجيتها وكما فاض بها
الخاطر أو « حسب ما سمحت به الفريزة » كما

(١) جبور عبد النور في دائرة المعارف ج ٤ ص ٤٦٤ أبو العلاء المعري
- آثاره *

قال (١) •

وفي هذا الكتاب تبرز آراء ومواقف المعري
النهائية من الكون والكائن والمجتمع • ذلك لأن
الكتاب أملي في شيخوخة المعري أو على الأصح في
ابان نضجه الفكري •

٢ - سقط الزند :

نشر بالقاهرة سنة ١٨٦٩ ثم نشر مع « ضوع
السقط » بشرح شاعر شقيق في ٣ أجزاء ببيروت
سنة ١٨٨٤ ثم في مصر سنة ١٩٤٥ في ٤ أجزاء (٢) •
يضم الكتاب ثلاثة آلاف بيت من الشعر مما قاله
أيام صباه واقباله على الحياة • وهو من أجود
شعره على رأي ابن العديم (٣) •

ثم شرحه أبو العلاء نفسه تحت عنوان « ضوع
السقط » ووقف خاصة على الغريب من ألفاظه
فشرحها وقربها الى الاذهان •

ويلاحظ في مؤلفات أبي العلاء أنها تحمل

(١) المعري ، اللزومات ص ٥ طه دار صادر بيروت بدون تاريخ ...

(٢) دائرة المعارف ج ٤ ص ٤٦٤ •

(٣) ابن العديم : الاختصاص والتحري ص ٥٣٥ •

عناوين رمزية غريبة جاءت نتيجة مقدرته على
الفوص في أعماق مدلولات الكلمات العربية التي
تزخر بها لغتنا ذات الاشارات البعيدة والتعابير
المشحونة بالجرس والظلال والايحاء والمجاز ، الامر
الذي لا تتأتى معرفته الا لمن كان مثل أبي العلاء
تخصصا بأسرار اللغة وتحسسا بمراميها وايحاءاتها
وجمالياتها التعبيرية والايقاعية بشكل عام . فبدلا
من أن يسمى هذا الديوان : شعر الشباب أو بواكير
القريحة سماه « سقط الزند » امعانا في التورية
والغموض . والسقط هو أول النار الخارجة من
الزند ، والزند هو العود الذي يقتدح به . فكأنه
أراد أن يقول : انه أول شعاع تألق في سراج
شاعريتي . . وأبو العلاء في هذه العناوين - الرموز
يبدو مغائرا لعصره الذي اكتفى بالأعيب البيانية
الجافة . . هذه الأعيب لم يسلم منها أبو العلاء
في اللزوميات لانه تجاوزها وارتفع عنها بما أوتي
من شاعرية فذة وعمق فهم لأسرار اللغة فلم يتله
كفيه بالقشور والأساليب الشعرية الروتينية
الباردة . . ولم يقف عندها . . وهي وان كانت
تلح عليه وتشد به الى متاهاتها الا أننا نلاحظ أنه
يحاول التهرب منها والعودة الى صفاء شاعريته

الأصيل . . كلما سنحت له الفرصة وبعد عن آفة
التقليد والمباهاة . .

أما موضوعات السقط فهي عادية روتينية تدور
على ما دارت عليه قصائد شعراء عصره من مدح
ورثاء وفخر ووصف وغزل وشكوى ودرعيات . .
وكان أبو العلاء بعد تخطي سن الشباب يكره
سماعه وكان يقول - كما ذكر تلميذه التبريزي - :
« هاذا ديوان مدحت به نفسي فأنا أكره
سماعه (١) » .

٣ - رسالة الغفران :

نشرت لأول مرة في القاهرة سنة ١٩٠٧ وقف
على طبع وتصحيح النصف الاول منها وهو ١٧
ملزمة الشيخ ابراهيم اليازجي بتكليف من أمين
هندية الناشر . لكن المنية عاجلت الشيخ ابراهيم
فأتم تصحيح الباقي أحد علماء الأزهر (٢) ثم
نشرت مختصرة مشروحة بعناية كامل كيلاني بمصر
سنة ١٩٢٥ . وفي مطلع الخمسينات قامت الادبية
المحققة المعروفة الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت

(١) أبو العلاء المعري متأمل في الظلمات لادوار أمين البستاني ص ٥٣

(٢) دائرة المعارف ج ٤ ص ٤٦٤ .

الشاطيء» بنشرها في طبعة علمية محققة بمصر
(١٩٥٠) • وللرسالة ملخص واسع باللفة
الفرنسية مع ترجمة بعض المقاطع ظهر في باريس
سنة ١٩٣٧ بعناية ميسى Maïssa • أما سائر
المستشرقين فقد عنو بالرسالة عناية فائقة • مثل
نيكلسون وسواه لاكنهم ظلوا دون مستوى التحقيق
العلمي الكامل للنص (١) •

موضوع الرسالة :

أملى أبو العلاء هذه الرسالة الجوابية وقد مضى
على عزلته قرابة ربع قرن • وكانت شهرته قد
طبقت الآفاق العربية وراسله الكثيرون مستفسرين
ومستطلعين خصائص هذا الفكر الجديد والشاعرية
الفذة • من بينهم « العلامة الفهامة المحدث علي بن
منصور الحلبي الملقب المعروف بابن القارح (٢) »

(١) أبو العلاء المعري : متأمل في الظلمات ص ٥٤ •
(٢) كذا في النسخة التيمورية • تحت عنوان : رسالة لبعض الفضلاء
الى ابي العلاء المعري • ادب تيمور • والمحققة من قبل الدكتورة
بنت الشاطيء •

الذي وجه من حلب الى أبي العلاء في المعرة رسالة يستوضحه فيها بعض مسائل فقهية * وبدلاً من أن يجيبه برسالة عادية مباشرة جعله يصعد الى السماء ويرى بنفسه كيف جرت وتجري الاحكام الالهية * ويسأل ابن القارح المخلدين في الجنة : بم غفر لكم ؟ والمخلدين في النار : بم لم يغفر لكم وماذا جنيتم ؟ ولكثرة ما ورد من أسماء الغفران ومشتقاته سميت الرسالة « رسالة الغفران » وهي من حيث التبويب قسمان : الاول استعراض حسي للجنة وأنواع اللذات فيها * والثاني اجابات مباشرة عن أسئلة ابن القارح *

في القسم الاول تحتشد جميع خصائص أبي العلاء الاسلوبية الحسية والسخرية الحقيقية أو التهكم المملو ، وخصائص التفكير العلائقي المتميز بالعمق وبعد الاشارة الى جانب تنوع الثقافة لديه وتعدد مصادرها وغزارة المعلومات الادبية التي تختزنها حافظته العجيبة ، فيروح على لسان ابن القارح يحاور الادباء والشعراء فيها سواء كانوا في الجنة أو في النار : ينقدهم ويصحح آراءهم أو يشني على بعضهم ويبدو أعلم منهم بها * *

أعجب أبو العلاء بشخصية ابن القارح (المولود سنة ٣٥٠ هـ) فهو شيخ سبعيني يتغنى بالزهد والزاهدين والصحابة والصالحين . . أفنى عمره في ما لا يصلح نفسه ويضرب في الارض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا يتبعه الخوف من مكان الى آخر ويتعقبه هزء الناس به : رفيقه يسرق له رسالة كلف بحملها وابنة أخته تنهب له مالا جهد في كسبه ، والذاكرة تخونه فتنسى ما قطع من المسافات في جمعه وأمضى الليالي في عده وحفظه . .

وجد المعري الفرصة سانحة حين وجه اليه ابن القارح رسالته المشهورة ليلهو به بعض حين . . وان يكون لهوه به عنيفا وشاقا يحشمه فيه ما لا يطيق الشيوخ القيام به الا في العالم الآخر فأفرغ المعري على لسان ابن القارح كل ما في جعبته من عويص الألفاظ وبعيد المعاني وعميق المغازي وجارح النقد بأسلوب ساخر طال وتشعب حتى غدا كتابا كبيرا هو « رسالة الغفران » كما أفرغ كل ما يضيق به من الناس وسخافاتهم والدنيا وهمومها فارتفع به خياله الذي ضاق هو الآخر بالأرض . . الى السماء . . الى العالم الآخر « فجمع الناس في ابن القارح » على حد تعبير أستاذنا الدكتور جبور

عبد النور ، « ونقل الارض الى السماء وجاء بأثر
تتجلى فيه جميع العناصر الفنية التي تجعل من
صاحبها شاعرا ملهما يخرج في صورته وأخيلته من
الدائرة التي نشط ضمنها شعراء العربية (١) » .
وقد نوهنا - في المقدمة - بما لهذه الرسالة من
خصائص فنية منها على سبيل التذكير :

أ - النفس المسرحي التمثيلي الذي لم يعرف عند
فحول المطولات .

باء - الخيال الدراماتيكي الواسع الذي أعان أبا
العلاء على الشطح والانتقال ببطله « ابن
القارح » الى « العالم الآخر » وتركه يتصرف
بحرية تامة . . ولولا ثقل المباحكات اللغوية
والمحاورات البيانية والوقوف عند كل كلمة
شاردة . . لولا هذه « الاستاذية » البلاغية
عند أبي العلاء لجاءت « رسالة الغفران » آية
في الابداع المسرحي الذي طالما افتقر اليه
الخيال العربي والشعر العربي .

٤ - وسائل أبي العلاء :

نشرت في بيروت مشروحة بقلم شاهين عطية

(١) دائرة المعارف ٤ ج ص ٤٦١ .

سنة ١٨٩٤ ثم نشرت عن مخطوطة محفوظة في مكتبة
ليدن مع ترجمة انكليزية بعناية المستشرق المعروف
مرغليوث - اكسفورد سنة ١٨٩٨ * وأمامي كتيب :
رسائل أبي العلاء المعري مع شرحها لجامعها خليل
الخوري وناشرها دار القاموس الحديث - بيروت
بدون تاريخ * * * وهي عن نسخة مشروحة بقلم
المعلم شاهين عطية وبإشراف ومراجعة الشيخ أحمد
عباس الازهري الشهير ، بتاريخ ١٨٩٤ وتتضمن
الرسائل في ما تتضمن رسالة الى خال المعري أبي
القاسم في حلب عند مغادرته بغداد ، ورسالة الى
أهل المعرة قبل قدومه اليهم *

٥ - رسالة الملائكة :

نشرت في طبعات غير كاملة في مصر ولينينغراد *
ثم نشرت كاملة ومحقة ومشروحة * قام بذلك
محمد سليم الجندي * دمشق ١٩٤٤ *

٦ - ملقى السبيل :

نشرها حسن حسني عبد الوهاب في مجلة
المقتبس * دمشق ١٣٣٠ هـ *

٧ - رسالة التذكرة :

نشرها مع ترجمة فرنسية غبريال كولن في باريس
سنة ١٩١١ .

٨ - خمس رسائل :

تبودلت بينه وبين داعي الدعاة الفاطمي .
نشرت في مصر سنة ١٣٤٩ هـ .

٩ - عبث الوليد :

نشره محمد عبد الله المدني بدمشق سنة ١٩٣٦
وهو تقييم ونقد لشعر البحري تحدثنا عنه في
المقدمة .

١٠ - الفصول والغايات :

لم يطبع منه سوى جزء واحد نشرته مطبعة
مجازي بالقاهرة وحققه « محمود حسن نناطي (١) »
سنة ١٩٣٨ وهو عبارة عن مقاطع مسجعة موزعة

(١) لعل الأجزاء الباقية دون طبع فيها ما يسيء إلى المعتقدات
الدينية ، إلا أن ابن العديم مؤرخ أبي العلاء ينفي ذلك بشدة ،

على حروف المعجم تقرب من نمط اللزوميات * فيها مواعظ وحكم دينية وتسبيح بحمد الله * وهي أول ما ألفه المعري اثر عودته من بغداد واعتزاله وقد سماه الفصول والغايات رمزا الى نوعين مختلفين من قوافي السجعات التي اعتمدها * والذين اتهموه بأنه يعارض فيه القرآن فعلو ذلك « تعديا عليه وظلما » كما يقول ابن العديم (١) اذ « ان الكتاب ليس من باب المعارضة في شيء » *

١١ - رسالة الهناء :

نشرت في مصر سنة ١٩٤٤ تحقيق وشرح كامل كيلاني *

١٢ - زجر النابح :

ويرمز بالنابح الى ذاك الكلب البشري الذي كال له التهم جزافا ملصقا به وصمة الكفر والالحاد مما أخذه من ظاهر أبياته * وحين زجره أبو العلاء في هذا الكتاب لم يذكر اسمه امعانا في تحقيره * نشر بعض أجزاءه الدكتور أمجد الطرابلسي (٢) *

(١) ادوار امين البستاني : ابو العلاء المعري : متأمل في الظلمات ص

٥٥ - بيت الحكمة - بيروت ١٩٧٠ *

(٢) بالنسبة الى رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطيء نشير الى انه في غفلة من الزمن سطا بعض لصوص دور النشر في احد البلاد العربية .. على حقوق الطبع والنشر والاقتباس العائدة قانونا للمؤلفة ، فصوروها بالاوفست دون استئذان المؤلفة * وباعو منها الالف المؤلفة !! فتأمل ..

هاذا ما نشر من مصنفات أبي العلاء وهو قليل
جدا بالنسبة لما لم ينشر بعد ، (وهو يفوق المائة
والعشرين عدا ٠٠) بين رسالة وكتاب وشذرات ٠٠
رحلاته :

جاء في وفيات الأعيان : ان المعري قصد بغداد
للتثقف والاستزادة مرتين ٠ وكان في الخامسة
والثلاثين من عمره ثم عاد اليها بعد عام تقريبا ٠
أما مؤرخوه الآخرون فيجمعون على أنه لم يأتها
سوى مرة واحدة ومكث فيها سنة وسبعة أشهر
للانخراط في حياتها الثقافية والاجتماعية وحضور
نواديها الادبية والاستماع الى ما يدور في حلقاتها
من نقاش وجدل عله يضيف الى ما كان قد حصله
سابقا في رحلاته القصيرة الى اللاذقية وطرابلس
وحلب وكفرط (١) وفي المعرة ما لم يكن قد وقف
عليه بعد ٠٠ لا سيما وان « حاضرة الدنيا » لا تزال
تزخر بالكثير من النوادي والحلقات والمكتبات
والمؤلفات وكبار العلماء والادباء ٠

ثم ان الحياة في المعرة ضيقة عليه لسببين :

(١) لعلها مصحفة عن انطاكية كما يرجح المحققون ٠

— اضطراب الحياة السياسية في بلاد الشام :
فالحدود الشمالية معرضة للخطر البيزنطي لا سيما
بعد زوال حكم سيف الدولة الذي كان حامي تلك
الثغور والمدافع ببطولة عنها . . فلا أمل ولا
استقرار ، في حين ان بغداد كانت بمأمن من كل
هاذا . .

— طموح أبي العلاء الذي لا يحد وتصميمه على
أن يبرهن للمبصرين والمتربعين على عرش الجاه
والعلم انه ليس دونهم كفاية ومقدرة . هَذَا مِنْ
جَهَةٍ ، وَمِنْ جَهَةٍ ثَانِيَةٍ ، لَارِضَاءِ نَفْسِهِ وَاقْنَاعِهَا بِأَنْ
مِثْلَهُ لَا يَقْعُدُهُ عَمَى مَادِي . ثُمَّ اِنْ بَغْدَادُ كَانَتْ
« قُطْبُ الرِّحَى » كَمَا يَقُولُونَ تَسْتَقْطِبُ كُلَّ طَالِبٍ
مَجْدٍ وَشَهْرَةٍ وَعِلْمٍ : فَفِيهَا تَفَاعَلَتِ الْحَضَارَاتُ الثَّلَاثُ
وَتَمَازَجَتِ جَمِيعُ ثَقَافَاتِ الدُّنْيَا . . فَمَنْ لَمْ يَرَهَا
« فَكَأَنَّهُ مَا رَأَى الدُّنْيَا وَلَا رَأَى النَّاسَ » عَلَى حَدِّ
قَوْلِ بَعْضِهِمْ . فَكَيْفَ لَا يَزُورُهَا أَبُو الْعَلَاءِ . .

لَاكِنْ مَفَكَّرْنَا لَمْ يَجِدْ فِي بَغْدَادِ بَغِيْتَهُ مِنَ النَّاحِيَةِ
الْعِلْمِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ وَأَنْ كَانَ قَدْ وَجَدَ فِيهَا مَتْنَفْسًا
لِطُمُوحِهِ وَحُبِّهِ لِلشَّهْرَةِ وَالْحَيَاةِ : يَقُولُ فِي أَحَدِ
رِسَائِلِهِ : « وَاحْلَفَ مَا سَافَرْتَ اسْتَكْثَرَ مِنَ النَّشَبِ

ولا اتكثر بلقاء الرجال ، ولاكن أثرت الإقامة بدار العلم فشاهدت أنفوس مكان لم يسعف الزمن باقامتي فيه . . » الى أن يقول : « والله يسبغ عليهم (أي البغداديين) النعمة ، ويحسن جزاءهم فلقد وصفوني بما لا أستحق ، وشهدو لي بالفضيلة على غير علم . . وعرضو علي أموالهم عرض الجد ، فصادفوني غير جدل بالصفات ولا هش الى معروف . . . ورحلت وهم لرحيلي كارهون وحسبي الله وعليه فليتوكل المتوكلون » .

يفهم من هاذة الرسالة ان البغداديين كانوا معجبين به مكرمين له ولولا حادثتان جرتا له لطالت اقامته في بغداد ولما كان أسرع في العودة وفي الاعتزال . . ولتغيرت حاله غير الحال . .

الأولى : حين دخل يوما على علي بن عيسى الربيعي اللغوي الضليع لعله يأخذ عنه شيئا من النحو . . لاكن الربيعي كان رغم علمه وفضله محمقا . فلما رآه صاح به : ليصعد الاصطبل ! وهو الأعمى بلفة أهل الشام . . فخرج أبو العلاء لا يلوي على شيء حزينا . . مكتئبا . . ولم يعد اليه أبدا . .

والثانية وهي الابلغ تأثيرا : كان الشريف الرضي وأخوه الشريف المرتضي معجبين بأبي العلاء مكرمين له ، لاكن هاذا لم يكن لوجه الله ، بل لأن أبا العلاء رثا أباهما « الشريف الطاهر » وقد صادف ذلك يوم قدوم أبي العلاء الى بغداد ، فأحب أن يتقرب الى هاذا الوسط الأدبي العالي . . لم لا ؟ وهو الكفي القادر على المنافسة والمباهلة والتحدي أينما كان . . غير أن أرستقراطية الشريفين وتعصبهما لكل ما يريانه حقا جعلتا القطيعة أمرا محتوما بينهما وبين أبي العلاء .

ومما عجل في ذلك أن مر يوما ذكر المتنبي في مجلس المرتضي الذي كان يكره أبا الطيب ولا يرى فيه شاعرا فحلا بعكس المعري . فأخذ المرتضي يعدد عيوبه وعيوب شعره . . فلم يطق أبو العلاء هاذا الهجوم الحاقدا فقال : « لو لم يكن للمتنبى من الشعر الا قوله : لك يا منازل في القلوب منازل ، لكفاه فضلا وشرفا » فغضب المرتضي وأمر بأبي العلاء فسحب برجله (أو سحل) وأخرج من مجلسه . وقال للحاضرين : أتدرون أي شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ؟ فان لأبي الطيب ما هو أجود منها لم يذكره !

فقل له : السيد النقيب أعرف ! فقال : أراد
قول المتنبي :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني كامل ..

لولا هاتان الحادثتان وأمثالهما من تعرض بعض
الأدعياء والمتزلفين لكرامة أبي العلاء تارة بالتجريح
وتارة بالتكفير لطالت اقامته في بغداد : المدينة التي
أحبها أبو العلاء ولم تحبه هي حبا خالصا ..

طريقة عيشه في معتزله :

رغم الصفعات التي تلقاها أبو العلاء في بغداد
ورغم قراره الحاسم بعد ذلك بالعودة الى المعرة
واعتزال الناس ، الا أنه لم يتخل عن مرجه وحبه
للناس .. للمساكين من الناس .. لطلابه ..
لطالبى لقائه .. ومعونته .. لا سيما أهل بلده .
فالتشاؤم المزعوم الذي طالما تحدث عنه المؤرخون
لم أجد له أثرا لا في حديث أبي العلاء المليء بالدعابة
ولا في تعليقاته الملفوزة بالسخرية من السخفاء
والحمقى والأدعياء ..

حتى ولا في يأسه من صلاح البشر والمجتمع ، ما

دام هاؤلاء لا يتمردون على واقعهم ويرضون
بالحياة الدون * * كما تمرد هو * *

يقول المصيصي الشاعر : « وربما تسلى الشيخ
في بعض أوقاته بلعب الشطرنج (١) ويدخل في فنون
الهزل فيقول : « أنا أحمد الله تعالى على العمى
كما يحمده غيري على البصر * وقد صنع لي
وأحسن بي اذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء » *

وقد ذكرو أنه كان اذا نهض لطعامه دخل في
سرداب لتناوله بعد أن يصرف خادمه حفظا لوقاره
من أن يُساء اليه وهو يأكل على مرأى من طلابه * *
واذا خرج اليهم بعد الاكل ورأوا على جبته بعض
أثر للدبس أشارو الى ذلك متضاحكين فيجيبهم
متضاحكا أيضا قائلا : قاتل الله النهم * * حتى في
مواقف الجد لا يتخلى عن مرحة ودعابته *

قالو : حاصر صالح بن مرداس معرة النعمان اثر
حوادث شغب جرت فيها (٢) فتولى أبو العلاء
الشفاعة لقومه عند صالح فأسمعه المعري « سجع
الحمام » وأسمعه صالح « زئير الأسد » :

(١) كان هاذا في بغداد وایام الشباب *

(٢) اللزوميات ج ١ ص ٤٩٢ تحت عنوان : سوق النفاق *

تفببت فف منزلف برهة
ستفر العفوب فقفد الحسد
فلما مضف العمر الا الأقل
وهم لروحف فراق الجسد
بمشت شففعما الى صالح
وذاك من القوم رأف فسد
ففسمع منف سجع الحمام
وأسمع منه زئفر الأسد
فلا فعجبنف هاذاف النفاق
فكم نفقت محنة ما كسد

ألا ترى ممف روح الدعابة - ولومُرءه- تنضح
من هاذف الأفبات ؟ ولعل الدعابة نففسها ممزوجة
بالشفاعة لأهل بلدته هف الفف لمسها صالح هاذاف فف
قصفدة مدحفة أخرى ألقاها على مسامعه وكانت
سبفا من أسباب تصالح الرجلفن وقبول الشفاعة
ومفادرة صالح المعرة قائلا لأبف العلاء : « قد
وهبت لك المعرة وأهلها » * * * شفخ ففوكأ على أفامه
القلفلة الباقفة هاذاف شأنه مع رجل عسكرف فحاصر
بلدته، وهاذف روحه * * شفخ كهاذاف لا فمكن أن فكون

متشائما عابسا • • جادا • • برما بالناس • • كل
الناس • • فكيف به أيام شبابه في بغداد وغير
بغداد • •

وسنجد الموقف نفسه والكلام الساخر نفسه في
رسالة الففران حين يلتقي ابن القارح بعض شعراء
الجاهلية فاذا بين سؤالهم وجوابهم سخرية ملفوفة
ونقد يضج بالفضيحة الضاحكة أو الضحك الفاضح
من هاؤلاء ومن قصائدهم ومعلقاتهم وعلى رأسها
معلقة امرئ القيس « العجوز الفاجرة (١) » ودع
عنك شجار بعض الشعراء في الجنة والفناء ورقص
الأوز وبيت الحطيئة وحوار ابن القارح معه الى
آخر هاذم المشاهد الساخرة التي تخفي وراءها
روحا لا يمكن أن تكون جادة متشائمة عبوسا • •

وانك لتجد الدعاة نفسها لا تزال تلاحق أبا
العلاء في أواخر أيامه ، وفي مواقف الجد أيضا :
جرت بينه وبين « أبي نصر هبة الله بن أبي
عمران » داعي الدعاة الفاطمي مراسلات حول

(١) قول المعري في رسالته : « ان قفا بنك على حسنها وقدم سنها
لتقر بما يبطل العدل الرضي فكيف بالبغي الانثى قاتلها الله
عجوزا ! لو كانت بشرية كانت من اغوى البرية »

أسباب زهد أبي الملاء وامتناعه عن أكل اللحم
وتحريمه * وقد تناهى الى مسامع « الداعي » قول
أبي الملاء :

غدوت مريض العقل والرأي فالقني
لتخبر أنباء العقول الصائح

فأجابه داعي الدعاة بقوله : « أنا ذاك المريض
رأيا وعقلا وقد أتيتك مستشفيا فاشفني * ثم
انتقل الى حلب وطلب من المعري موافاته اليها *
ولكن أبا الملاء كان قد مات * »

أوردت الخبر ليظهر لك من هذا البيت ومن رد
الداعي عليه ان موقف أبي الملاء لم يكن جادا ولا
هو رأيه النهائي في داعي الدعاة * والا لما كان
جواب الداعي ذاك الجواب * وما رأيك بانسان
لا يتغلى عن روحه المرحه ودعابته حتى في آخر
لحظات عمره * يقول في رسالته الأخيرة الى داعي
الدعاة ، واصفا حاله وما آل اليه من عجز وانهيـار :
« الآن علت السن وضعف الجسم وتقارب الخطو ،
وساء الخلق * * * وصار لفظي من أجل ذاك (أي
من خلو فمه من الأسنان) مشينا ، وجعلت سين

الكلمة شيئا فلم يفهم عني سامع ما أقول * * * «
يا لها من دعاة مرة * * ما نكاد نضعك لها حتى
نبكي منها * * على حد قول ألفرد ده ميسيه

أما محاسبه : العمى والمنزل والنفس الساكنة
رغما عنها في الجسد الخبيث - كما يقول - فلم تكن
- على مرارتها - مبعثا لأي نوع من أنواع التشاؤم
الذي ألصقوه به تجنيا وتسرعاً * * فقد ظل المعري
بالرغم من كل فساد عصره ولؤم ناس عصره
والصفعات المتتالية التي تلقاها ساخرا متهمكا
حزينا على الناس لا من الناس ضاحكا من سخفهم
وضعفهم أو ظلمهم وكبريائهم (١) *

أما كيف كان يعيش أبو العلاء فهنا تكمن حقيقة
زهده وقيمته : فالزهد هو أن تترك الدنيا وأنت
راغب فيها ، والمال وأنت قادر عليه * ولقد كان
أبو العلاء في يسر من أمره ، وفي تعفف عن أخذ
أجره * * كان راغبا في الدنيا ثم رغب عنها وكان
قادرا في الحالين * * كان انسانيا بين الاناسي ثم
صار انسانيا بعيدا عن الأناسي من أجل انسانيته
* * كيلا تضيع أو تهان * *

اتصل به نفر من الأمراء يسألونه تشریفهم
بتصنيف كتب لهم فأجاب دون أن يأخذ عليها أجرا
كما أجاب غيرهم وصنف لهم العشرات من الكتب
والتفاسير (١) .

كان لا يقبل مالا الا ما يأتيه من أخواله وكثيرا
ما رد الفائض منها . ويوزع ما يبقى لديه من
دنانير على خادمه ونساخه الملازمين . على ان أبا
العلاء لم يعرف الفقر المدقع في حياته كما يخیل
لل بعض . يقول الدكتور جبور عبد النور في دائرة
المعارف (ج ٤ ص ٤٥٧) : « بل عاش ناعم البال
في غير ترف ، مؤمن العز في غير اسراف . ولعله كان
يتناول بعض العائدات من أرزاق أهله ، ويأخذ ما
يقدمه اليه تلاميذه من الهدايا ، ويرفض كل ما
يعرضه عليه أصحاب الشأن والنفوذ . . . » (٢)
ويذكر البديعي في « أوج التحري » ان الشيخ كان
يجري رزقا على جماعة يقرأون عليه ولم يقبل لأحد

(١) لتفصيل ذلك انظر : ابو العلاء المعري - بنت الشاطيء ص ١٥٣

- ١٥٤ سلسلة اعلام العرب رقم ٣٨ .

(٢) كتابه رسول المستنصر صاحب مصر فبذل له ، ان اتى اليه ما
ببيت المال في البعرة فلم يقبل ، راجع الصفدي : نكت الهميان في
نكت العميان ص ١٠٥ .

هدية ولا صلة، وكيفما دار الامر فان منزله في المعرة
لا يبدو لنا — على تواضعه — صومعة لا يدخلها
الهواء ولا الناس .. وساكنه المعتزل لا يبدو راهبا
متنسكا منقطعاً عن الدنيا منصرفاً الى العبادة
والمجاهدة .. ولا هو مقبل على الدنيا بكل نهمة
الأول وحبه القديم ولا هو رافض لها رفضاً قاطعاً ..
لاكنه كاره لها عاتب عليها لأنها لم تحسن وفادته
وهو الكريم الخليق بها .. أما ناسها فكان بوده
لو يبقى معهم كل يوم ... لاكنهم جنو على أنفسهم
حين جنو عليه وتنكرو له، فها هو يتنكر لهم ويهرب
منهم الى ... ذاته يحتضنها الى ... عقله ، يلوذ
به .. أما البسمة والحنان والحب فأشياء من صميمه
حبستها فيه ظلمة الوجود وظلم الوجود وغياب الأب
والأم والاحبة الأذنين .. تحت التراب .. لكن
البسمة والحنان والحب لهم .. وكل ما فوق
التراب .. سراب .. فأين يوزع هاذي الشعاعات
الثلاث وهي من طبعه لا يملك حبسها ؟ لم يبق الا
الحيوان والطير والحشرات والانسان الضعيف
والديك المستضعف وأديم الارض يرسلها على هذه
الكائنات المسضعة رحمة وحنانا وحباً ويكون له
معها موقف أبوي لا يغير .. وهذا هو سبب

تحريمه الحيوان ومشتقاته لا تلك الدعوى الباطلة
بأنه تأثر بالعقيدة البرهمية التي تحرم أكل
الحيوان من كل نوع .. أما أديم الارض
فمستضعف بدوره .. يداس كل يوم .. وكل
لحظة .. فلا أقل من أن. نخفف الوطأ عليه .. اذ
لعله مركب من رفات الآباء والاجداد .. بل هو
كذلك ..

أما الانسان المستضعف فقد خسر وجوده مرتين:
مرت. يوم ولد ومرة يوم سلبه القوي قيمة هاذا
الوجود ..

ومهما قيل عن موارد رزق أبي العلاء في معتزله
فقد كان « غنيا عن المال لا به .. » كان كل ما
يحتاج الى المال في جسده معطلا .. فلم المال أو لمن ؟
الا ما يقيم الأود ويسد الحاجة اليومية ..

أبو العلاء المثقف :

نسارع الى القول ان أبا العلاء كان ذا ثقافتين
مميزتين : ثقافة لفوية وثقافة علمية فلسفية اذا
صح التعبير . وتلك كانت سمة العصر على كل
حال : لم يكن كافيا أن يكون الشاعر موهوبا لكي

يصبح شاعرا أو يتعاطى مع الشعر • كان عليه أن يتشقف ، فيلم بكل ما يتصل بالشعر من علوم وفنون الى درجة التأليف والتصنيف وهاذا ما فعله قبله بكثير أبو تمام وأبو عبادة أما المتنبي فقد كان قادرا على ذلك لانه لم يكن مستقرا ليؤلف أو يصنف •• كان مشغولا عن نفسه والفه وسكنه يطوف في أرجاء الدنيا العربية كل يوم وحين يسكن الى نفسه يفكر في كيف يخرج منها الى ••• المجهول ••• وساعة احتجز في مصر •• حم ومرض •• وهرب ••

أما أبو العلاء فان لم يصنف ويؤلف فماذا يفعل وقد عزم على عزلة لم تكن سلبية في نظري كما يحاول بعض المؤرخين أن يفسروها على أنها يأس من الناس وبعد نهائي عنهم و « تشاؤم » قاتل •• كلا بل كانت عزلة ايجابية مشعة تريد العطاء لمن يستحق العطاء وتحجب العطاء وتمنع اللقاء عمن هرب منهم في بغداد وغير بغداد من التافهين والحاسدين والثقلاء •• لم ينسحب أبو العلاء نهائيا من الدنيا، والا لأغلق بابه في وجه كل طالب وتنسك في كهف لا يغادره •• أو عمود لا يهبط منه

الا ليصعد اليه مترهباً متنسكاً لا يريم (١) أو
كالغزالي الذي سيعتكف ويتصوف في بيت المقدس
ساتراً وجهه بعباءته ليشاهد أنوار الربوبية
وأعلاج الصليبيين يسومون بلاد حجة الاسلام سوء
العذاب (٢) *

كان منسجماً مع نفسه - اذن - قبل العزلة
الطوعية وبعدها - كان قبلها مقبلاً على الدنيا
شغفاً بها .. وكان بعدها مجاهداً كبيراً من أجل
تخفيف هذا الشغف وكبح ذلك الاقبال .. كان
مع نفسه في مجاهدة يومية عز نظيرها عند الزهاد
المرتاضين .. وبين رياضة ومجاهدة دامت نصف
قرن .. سقط الجسد موهون القوى دون احراز
نصر نهائي .. لقد لعن أبو العلاء الدنيا مراراً
وصب عليها جام نقمته لآكن ذلك كان لشدة حبه
لها وفرط تعلقه بها .. كانت أمامه كفانية لعوب
فتنته بسحرها وجمالاتها .. لآكنها كانت دون
مستواه .. كانت بلا عقل .. فلعنها لعنة عاشق

(١) كالراهب سمعان العامودي مثلاً *

(٢) وحسناً فعل حين عاد عن تصوفه الاول فلبيا « نداء الاهل والولد »
والجاه والشهرة والتعليم في نظامية بغداد وتركيز دعاكم الاشعرية!!
- المؤلف -

فشل في حبه وراح في مجاهداته يقهر ما فطر عليه
من شغل بها . .

تقول بنت الشاطيء : « وهو حين انسحب منها
اثر عودته من بغداد لم يكن يبغى أكثر من الظفر
براحة اليأس منها بعد أن عزت عليه راحة الامل
فيها . . » ولأبي العلاء نفسه أقوال هي ذوب
وجدان . . وعصارة قلب هائم بحب هاذي الفاتنة :
جاء في « الفصول والغايات » (وهي كتاب أملاه
اثر عودته من بغداد واعتكافه) : « انما أنا رجل
بلي بالصدى . . لا يجد أبدا موردا فهو ظمآن
أبدا . . أيتها الدنيا البالية ما أحسن ما حلتك
الحالية والنفس منك غير سالية . بي طب - داء . .
فأين استطب وأنا تحت حب الدنيا محب - رازح -
أثقلني فأنا مكب . . . الى أن يقول : « ان أسفي
على الدنيا طويل . . أحب الدنيا كأنها تحبني . .
والفريزة عن الرشد تذبني . . أحب الدنيا وآلتها
ليست في . . وقد يئست من بلوغها واليأس مريح
. . فالام التشوف والضلال ! . . »

وقال في اللزوميات :

ولا تبدين الزهد فيها فكلنا

شهيد بأن القلب يضم عشقها

لاكنه زهد فيها وكان في زهده مجاهدا :

أيها الدنيا لحاك الله من ربة دل

ما تسلى خلدي عنك وان ظن التسلي

ويمضي على هاذي الوتيرة في مئات من أبيات

اللزوميات وغير اللزوميات •

كانت ثقافة أبي العلاء الأولى اذن ثقافة لغوية

دينية ثم تواكبها الثقافة الأدبية وتلف الثقافتين

جميعا الثقافة العلمية والتأملية الفلسفية • وبتعبير

أدق الفلسفة الماورائية الميتافيزيكية •

أما لماذا الثقافة اللغوية الدينية أولا ، فلأن

واقعا خاصا قد فرض عليه ذلك : كونه أعمى

والأعمى يتميز بذاكرة حافظة قادرة على الالتقاط

والاختزان ، وبقدرة على التحليل والتعليل

والربط • ثم كونه في كنف أب مثقف ثقافة لغوية

وفقهية تتميز بأبوة رحيمة حرصت على تعليم

الطفل وتقويم لسانه لتعوض عليه ما سلبه إياه

القدر من نعمة البصر • •

فشب أبو العلاء كلفا بالكلمة شغفا بالعبارة
والفقرة والسجعة والجرس الموسيقي وسرعان ما
برز صاحب مدرسة لغوية تخالف أو تبذ مدرستي
الكوفة والبصرة الشهيرتين (الكسائي وسيبويه)
وما أثارته من قضايا لغوية شغلت علماء بغداد
والقاهرة وقرطبة زمانا طويلا * حتى اذا عرض
لها أبو العلاء جاء بالقول الفصل والرأي الأصح *
ظهر ذلك في مصنفه « رسالة الملائكة » الذي يبدو
فيه علامة عصره في التحقيق اللغوي ورد الكلمات
الى أصولها ونقد ما جاء عن السلف نقد خبير بصير
* وهو في هذا الميدان انقلابي متجدد يكره
الوقوف عند القواعد القديمة ولو جاءت من كبار
واضعيها كابن السكيت وسيبويه ، بل يتعدى ذلك
الى النقد والتصحيح بأسلوب ساخر مشوق لم يتخل
عنه المعري - كما ذكرنا - حتى في مواقف
الجد * (١) *

(١) هل نقول : « يا رضو لنا اليك حاجة » او نقول : يا رضو فيضم
الواو ، فيقول رضوان (ص) : ما هذه المخاطبة التي ما خاطبني
بها احد قبلكم ، فنقول : انا كنا في الدار العاجلة نتكلم كلام
العرب ، وانهم يرضون الاسم الذي في اخره الف ونون فيحذفونهما
للتخفيف ، (رسالة الملائكة ص ٢٥) انظر دائرة المعارف ج ٤
ص ٤٦٠ *

ودع عنك رسالة الغفران التي وان أثقلتها
فنيا المجادلات اللغوية ، الا أنها أظهرت مقدرة
المعري العجيبة في تتبع شوارد اللغة وقواعدها •
ومعرفته الموسوعية لأدق أصولها وأعتى أسرارها •
حتى قال عنه منصفوه كابن الجوزي والبديعي قولا
يضعه الى جانب المعجزة • • •

أبو العلاء والعقيدة :

إذا سائرنا المؤرخين التقليديين والذين لا
يكلفون أنفسهم عناء السبر والتحري والانصاف
ويلجأون الى ظاهر القول دون باطنه قلنا معهم
— هاكذا وبمجانبة مطلقة — ان أبا العلاء كافر
ملحد زنديق • • ولاكننا لا نريد أن نكون ببغاوات
تقلد غيرها وتكرر ما قالوه دون نظر أو تدقيق • •

وإذا غضب أبو الوفاء بن عقيل وأبو جعفر
الزوزني وعبد السلام القزويني ومن تعصبوا عليه
فلن تغضب الحقيقة • نفعك ذلك — إذا وفقنا —
لا ارضاء لأبي العلاء أو لأي عاطفة معينة بل
انصافا للحقيقة التي طالما طمسها هاؤلاء وجرحوها •

ثم أي ديانين هاؤلاء الذين يهاجمهم أبو العلاء

باستمرار ويفضحهم؟! هاؤلاء الذين أصبح الدين في
نظرهم سلعة تباع وتشترى؟ وانقلب جبة وقفطانا
يخفيان وراءهما انسانا علقّة ، فقد كل مقومات
الانسانية وكل قيم الدين ..

لو كان يملك أبو العلاء أسلحة غير تلك التي
شهرها في وجه المزيّفين لامتشق سيف علي وأبي ذر
والحسين وأعمله في رقاب لصوص الدين .. لكنه
كان أعمى البصر نافذ البصيرة سلاحه الوحيد
ضميره والأصداء المؤلمة المتراكمة فيه عن أفاعيل
زناة الدين ، يملك تلك الكلمة الجريئة الهادرة
الصريحة التي تملك أن تنتحر أو تنفجر لاعتكافها
لا تملك - لدى الاحرار - أن تصبح بخورا يحرق
على أقدام الجلادين الذين :

ظلمو الرعية واستجازو كيدها
وعدو مصالحها وهم أجراؤها
في زمن رديء يقتل فيه مثل الحسين
ويستخلف فيه مثل يزيد !!
أرى الأيام تفعل كل نكر
فما أنا في العجائب مستزيد
أليس قریشکم قتلت حسينا .
وصار على خلافتكم يزيد ؟!

والمصيبة ان جميع من تعصبو له أو تعصبو
عليه كانوا اتباعيين تقليديين لم نستطع من خلال
آرائهم فيه أن نقف على حقيقة معتقده : فأية
قيمة تبقى لكلام الزوزني حين ينحدر الى مستوى
الكلاب في قوله :

كلب عوى بمعة النعمان
لما خلا من ربة الايمان ؟ ..

وعبد السلام القزويني معاصر المعري الذي
لفق قصة حوار معه واليك ملخص هذا الحوار
القصير الملفق :

المعري : أنا لم أهج أحدا قط ..
القزويني : صدقت الا الانبياء !
المعري :

وحوار ملفق آخر على لسان أحد الحاقدين
ويدعى القاضي المنازي * أما مصدر التلفيق
فواحد : الصفدي وكتابه : نكت الهميان !

القاضي المنازي : اسمع الناس يشككون في دينك
وسلامة عقيدتك *

المعري : ما لي وللناس وقد تركت دنياهم .
القاضي : وأخراهم ؟

المعري : وأخراهم . . . وأخراهم . . .
كل هذا العواء أو هذا الافتراء لا يستحق
الوقوف عنده :

أولا لأنه ظاهر التهافت . وثانيا لأنه لا ينسجم
مع حقيقة الايمان العقلاني والوجداني عند أبي
العلاء الذي طالما خلا الى ربه فناجاه بأحر الدعوات
وأصدق الصلوات في قصائد وشذرات ابتهالية
صادقة رائعة .

يقول أستاذنا الدكتور جبور عبد النور :
« وليس كالمعري مصليا وواعظا أقاد من الكلمة
المختارة والسجعة الموفقة والقافية الموقعة في
استثارة هذا الشعور لدى الانسان العابد ، معبرا
في كل هذا عما ورد على السنة أئمة الدين .
فاستمع اليه يقول في « ملقى السبيل » :

سبح لالهنا الفلك ، وقدس البشر والملك ، والجسم
في العفر
يستهلك ، والمرء بالعارفة يملك ، والنهج للآخرة
يسلك

سبح مع الشهب كما
 سبح - من قبل - الفلك
 قدس انسان على الارض
 وفي الجو ملك ..
 سالك شيء واذا
 أطعت فالرحمة لك ..

أما اذا خبت العاطفة (والايمان عاطفي أكثر
 منه عقليا) وقوي « عقله » في تفكيره فلا يقبل
 بالتسليم (المطلق) وينكر أقدم العقائد في نظر
 المجتمع الذي نشأ فيه .. الخ (١) « ويا له من
 مجتمع جحود منهار :

العقل فيه ضائع والدين مضيع
 والقيم فاسدة مقلوبة ..

أفلا يحق لأبي العلاء ومن كان مثله ذا جرأة
 متناهية في قوله الحق أن يصرخ في وجه مشوهي
 الدين صرخته المعروفة وأن يشك حتى .. في الدين
 نفسه ؟! انها سورة غضب وتنفيس كربة لا أكثر
 ولا أقل ، من مؤمن عقلاني يريد أن يفهم الدين كما

(١) د جبور عبد النور في دائرة المعارف ج ٤ ص ٤٦٢ ،

يراه هو لا كما يراه الآخرون . . وأن يرى الله بعقله وبصيرته لا بالتقليد أو بالترديد . . لماذا لم يعلنوا الحرب على الغزالي حين شك حتى في العقائد الموروثة قائلا : « اني رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام (١) » فتحرك باطنه الى طلب الحقيقة فظهر له ان العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب . . الخ . . ومعنى ذلك ان الغزالي قد رفض التقليد ليبدأ من جديد واتخذ الشك طريقا اليه . لم لا نضع أبا العلاء على نفس طريق الغزالي : طريق الشك توصلا الى اليقين ؟! فاذا بدرت من أبي العلاء بادرة شك أو كفر أثناء ذلك ، قامت القيامة عليه ولم تقعد بعد . . أما الغزالي الذي شك وأبطل العقيدة الموروثة ولم يؤمن بها الا عن طريق الحدس لا العقل ، والذي عطل العقل حين أبطل السببية الطبيعية بل أنكر حكمة الله وعقله في خلقه الوجود والوجود على أساس تلك السببية لا لشيء الا ليبرر المعجزة . . أما الغزالي هاذا

(١) المنقذ من الضلال ص ٦٣ +

فمعدور ومشكور ومؤمن غيور لأنه ... حجة
الاسلام والمدافع عن حياض الدين والعقيدة
السلفية الموروثة ..

أما أبو العلاء فملحد كافر وزنديق موتور ..
لماذا ؟ لأنه شك حينا (ولم يشك أحيانا) .. لأن
زمنه قسا عليه وأحرجه فأخرجه .. ولأن ناس
زمانه مسخو وشوهو كل شيء .. وأول ما مسخو
وشوهو الدين .. هل ينتظر ممن لا يرى بسوى
منظار العقل أن يهادن هاؤلاء ويقبل دينا أصبح
ألعوبة بين أيديهم ؟! هاذا يشرق به وهاذا يغرب ..
هاذا يجعله دين جبر وتعطيل وهاذا يفهمه دين
حشوية وتجسيد ، أو دين قبول بالمنكر وارجاء
العقوبة الى يوم يبعث المجرمون ..

أبو الطيب ادعى النبوة فلم يكفره أحد وأبو
العلاء لم يدعيها ولاكنهم كفروه فيما دون ذلك ..

أبو العلاء صلى وصام وتهجد وأرسل الى
السماء ابتهالات . أين منها ابتهاال النساك وذكر
الصوفيين في خلواتهم ومع هاذا بدعوه وجدفو
عليه ..

وتفسير هاذي المفارقات كما تقول بنت الشاطيء
وقولها الصواب : « ان أبا العلاء كان نمطا فريدا
لا عهد لتلك العصور بمثله ، ومن ثم بقي فيها
غريبا لأنه ليس من أهلها وصدقت فيه كلمته :

أولو الفضل في أوطانهم غرباء
تشذ وتنأى عنهم القرباء

لقد رفض حياتهم فحاولو أن يرفضوه ..
« وقعدو في أمر عقيدته وقامو .. حكو كفره
بالأسانيد وكفره من جاء بعدهم بالتقليد » كما قال
ابن العديم أحد مؤرخيه المنصفين .. كل ذلك
تشويها لصورة الاديب الحر المناضل .. لقد
استغلوا فيه انسانيته وأبوته ورحمانيته فشوهوها
أمام الجماهير وقالوا لها انه كافر ليبعدوها عنه ..
وزادوه تشويها حين صوروه عدوا للمجتمع .. وتشهد
بنت الشاطيء انه ما كان يوما عدوا الا لأعداء
المجتمع .. ونسو انه القائل :

ولو اني حبيت الخلد فردا
لما أحببت في الخلد انفرادا
فلا هطلت علي ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظم البلادا

وقالو متشائم يئد الطموح في نفوس الشبان
ونسو دعوته الى العمل وتمجيد العاملين وغطو على
أرستقراطية وأنانية أبي فراس حين قال :
إذا مت ظمأنا فلا نزل القطر * * وروجو لزهديات
أبي العتاهية الذي نطق بها وهو غارق حتى الاذنين
في الترف بقصر الرشيد * * * » .

المصيبة أو المأساة عند أبي العلاء انه شاعر
وانه حساس * * وانه ذو عقل * * وانه في قرن
لا عقل له * * ولا دين * * *

ثم لماذا لا يعمم الشاعر المتأمل الذي يرى الناس
هاكذا في كل عصر وكل جيل * * انها مأساة
الانسانية في كل زمان : مأساة - مهزلة : ما نكاد
نضحك منها حتى نبكي لها :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لأبناء البسيطة أن يبكو
تحطمتنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولاكن لا يعادله سبك

وتعلن عليه الحرب في كل مرة * * ويكفرونه

في البيت الثاني لأنه ينكر حشر الاجساد !!! ونسو
« كأن » .. التشبيهية .. ثم نسو انها زفرة شاعر
أمام المصير المدمر ... ووقفه طالما وقفها الشعراء
العالميون أمام المصير الرهيب .. والمجهول المخلق
يدقون أبوابه بحرقة واصرار ولا يلقون جوابا ..
ولسوء الحظ - أو لحسنه - أن مكفريه هم دائما
رجال دين أو من يدورون في فلكهم ممن ينكرون العقل،
مع ان الدين يدعو الى العقل والفكر .. وهاكذا
تتضح القضية في نظر أبي العلاء فيحسمها قائلا :

اثنان أهل الارض ذو عقل بلا
دين وآخر دين لا عقل له !!

ولاكنه حسم عاطفي أني سرعان ما نراه ينتقل
منه الى المعادلة بين الكفتين : كفة الايمان العاطفي
والبرهان العقلي الحسي :

زعم المنجم والطبيب كلاهما :
لا تحشر الأجساد قلت : اليكما :

ان صح قولكما فلست بخاسر
أو صح قولي فالوبال عليكم
ها هنا معادلة جدلية فيها من العبث والسخرية

أكثر من تحديد الموقف النهائي أي الفلسفي
الماورائي . . .

امام الله :

على ان أبا العلاء أمام واجب الوجود أو الله
في أزليته وأبديته ولا محدوديته مقرر خاشع خاضع
معترف . . يستدل عليه ويؤمن به لا عن طريق
الدين والتقليد بل عن طريق العقل : ومبدأ العلة
والمعلول ، ودليل العناية :

ضلو عن الرشـد : منهم جاحـد جحد
أو من يحد ، وهل لله تحديد

مولاك مولاك الذي ماله
ند وخاب الكافر الجاحـد

أمن به والنفس ترقى ، ر
لم يبق إلا نفس واحد

ترج بذاك العـضـر منه ، اذا
ألحدت ثم انصرف اللاحـد (١)

(١) اللزوميات ج ١ ص ٣٤٦ .

فأله اذن غير مستهدف من غمزات أبي العلاء
أبدا ولا هو موضوع شك على الإطلاق .. يسبحه
.. يعترف به .. يراه في كل شيء ..

أما الدين فلا يناقشه من حيث المنطلق : من
حيث الوحي والتنزيل .. ولكنه حين يشك فيه
- وقلما فعل - فمن حيث التطبيق ومن خلال
القائمين عليه .. بل المتاجرين به .. فهو يرى
بعين البصيرة ابتداء من عصور الأديان الثلاثة
وانتهاء بعصره ان هاذة الأديان شيء والديانين
شيء آخر .. يراها - في أساسها - دعوة الى الحب
والتحاب ، والصفاء ، والتصافي ، ونكران الذات
وقتل الوحش في الانسان .. فاذا به يرى العكس
.. يرى الوحش في الانسان هو المنتصر دائما ..
ويرى الأديان وقد تنافرت وتطاحت مع أنها من
مصدر واحد ولغاية واحدة .. أفلا يحق له أن
يتساءل بحرقه ولوعة وسخرية : يا ليت شعري ما
الصحيح ؟! بعد ان رأى رجال الدين يكذبون على
الله ويكذبون على أنبيائهم ويكذبون على أنفسهم :

فقد كذبت على عيسى النصارى
كما كذبت على موسى اليهود

انه تساؤل انكاري يفجر في كيان الشاعر نقمة
مكبوتة .. لا أكثر ولا أقل .. وليس استفهاما
موضوعيا ينتظر الجواب ... تساؤل فيه من
الرحمة والأبوة والايمان ما فيه ، رغم التشكك
الظاهر ...

هاذا موقفه أمام الله والدين ورجال الدين ..
وهو موقف عقلاني لا تناقض فيه ولا تكذيب ولا
مروق ..

أما الفرق الدينية والمذهبية وأقوالها ومعتقداتها
المتشعبة الكثيرة فقد كانت لأبي العلاء خواطر
حولها - لا مواقف - والخاطرة بنت اللحظة وحصيلة
مزاج عابر تتأثر سلبا وإيجابا وفق اللحظة وبمقدار
ما يغيب العقل عن التحليل والاستنتاج والربط ..
تارة يرى شواهد « جبر » لا يحققه

أرى شواهد جبر لا أحققه
كأن كلا الى ما ساء مجرور

وتارة يرى الشر في أصل النوع البشري
وان رددت لأصلي دفنت في شر تربة ..
وحين يقع في التجسيم لا يكون ذالك منه ايمانا

أو معتقدا بقدر ما هو لحظة عابرة أو استعراض
تمثيلي لمختلف الآراء والمذاهب السائدة في عصره
.. كأنه يريد أن يدلي بدلوه في كل مذهب وكل
رأي ثم يغادره الى غيره معبرا عنه ببيت أو بيتين
أو أكثر قليلا .. وكأنه يريد أن يتلهى في عزلته
تلها فكريا يداعب هاذا ويغمز من قناة ذاك .. ثم
ينتهي فاذا هو : لا شعري ولا معتزلي .. ولا
حشوي ، ولا جبري .. ولا أرسططاليسي .. ولا
برهمي .. ولا علوي .. ينتهي كما بدأ .. أصيلا
.. متفردا محتضنا لذاته .. لائذا بعقله .. سابقا
لزمه .. والكل بغد ذلك هباء وهراء :

وزهدني في الخلق معرفتي بهم
وعلمي بأن العالمين هباء

فلا تقليد .. ولا عدوى .. حتى في التأؤب :
يتشاءب وحده وعلى طريقته :

تشاءب عمر اذ تشاءب خالد

بعدوى فما أعدتني الثؤباء .. (١)

ولن تجده فيلسوفا الا في هاذا .. فاذا كان
التفرد وتخطي الزمن والحداثه ورفض التقليد

(١) وهو يرمز بالتأؤب الى التقليد الاعمى طبعا .

والسخرية من كل زيف وانحراف والتعبير عن كل ذلك بالكلمة الحرة المتحررة الموهوبة والموقف السليم والسلوك القويم . . . اذا كان كل هاذأ فلسفة فأبو العلاء فيلسوف وفيلسوف : رائد . .

واذا كان التأمل البعيد واستشفاف ما وراء الحجب الصفيقة والقيم المتوارثة وسؤل كل ذلك تناولا انسانيا رحيمًا . . واذا كان الحلم بمجتمع عقلي لانسان عاقل يبنيه على الحب والفضيلة . . واذا حلم طويلا بهاذأ وأراده بكل جوارحه وامكاناته ثم رأى الحلم ينقلب واقعا فاجعا حيث لا أمل لما تمناه ولا ظل . . وراح يستنتج ان كل حلم بانسانية صالحة هباء وبمدينة فاضلة هراء . . والحياة مجتمع شرور ومستقر أوهام . . بل هي غابة تسرح فيها الوحوش من كل نوع . . . حتى اذا تجمعت كل أسباب الفاجعة أمام عينيه (وللقلب الشاعر عينان) راح ينفذ يديه من حلمه الأثير وبدأ يتعاطى مع الفاجعة نفسها منطلقا - في أقواله وأفعاله - منها ، مغنيا آلامه في نشيج مرير معلنا : ان لا أمل ولا بعث ولا قيامة . . والحل ؟ الحل في ايقاف النزف . . والامتناع عن القذف في رحم الحياة . . كيلا لا تلد المأساة من جديد . . وهنا

•• يبرز شبح المرأة •• التي قدسها أما ومربية ••
وتغنى بجمالها - ذات يوم - في بغداد وأقبل على
الدنيا من أجلها •• ها هو يراها مصدر الحياة في
دورات تجدها اللامتناهية معتبرا اياها مسؤولة
فيصب عليها لعناته طالبا عدم اتخاذها زوجة كيلا
تلد البنين والبنات •• اذ ما دامت الحياة شقاء في
شقاء •• وما دامت المرأة سرها ذا البلاء فلم حياتها
ولم اتخاذها مصدرا للحياة وها هو يبدأ بنفسه فلا
يتزوج كيلا ينسل •• ولا يسهم في تجدد المأساة ••

اذا كان كل هاذا فلسفة فأبو العلاء فيلسوف
كبير ••• ولتتخذ الحياة مجرى آخر وليكن العدم
أفضل منها •• ما دامت قد جرححت كبريائه وأذلت
عنفوانه وحطمت حبه وقلبه •• ويا مرحبا بالموت
بعد طول مغالبة ومكابدة ومعاناة •• لاكن أشواقه
الجريئة لن تموت وصبا باته الملتهبة لن تكبت الا
الى حين •• وها هي تتجسد - في منتصف المجاهدة -
وقبل الرحيل بربع قرن •• في رسالة الغفران ••

اذا ما هي رسالة الغفران ان لم تكن متنفسا رحبا
للاشواق الدفينة والرغائب المكبوتة في أعماق هاذا
الزاهد المجاهد الذي انتصر على الدنيا بعد حب

واقبال لاكن لواعجه لم تمت (١) وأشواقه لم تزل
ولم يخف أوارها في سويداء قلبه * وها هي تجد
مستراحا لها ومقيلا في العالم الأرحب : عالم
الآخرة : ها هي الأماني الموعودة وصبايات الشباب
الدفينة يلهبها صدى الشوق المغلول وصليل القيد
الكثيف الذي كبل نفسه بالحرمان الثقيل .. ها
هي وقد أطلق لها أبو العلاء العنان في حلم عجيب
من أحلام يقظته أعان على تحقيقه في رسالة الغفران
خيال أعجب ونفس تواقة الى عهودها الأول .. الى
حقيقتها المحبة المقبلة اللاهية والتي حال العالم
الاصفر والدنيا العاجلة من تحقيق أقانيمها الثلاثة
(محبة - اقبال - لهو) فاذا بها تحياها من جديد
وعلى الصورة التي أرادها لها حرمانه المسيطر
وعزلته القاهرة .. فمن جحيم المحابس في المعرة الى
جنة عرضها السماوات والارض تعج بالحركة
وتصطخب بالحياة : عراق ، خصومة ، تشابك
بالأيدي ، ملاحاة ، شتيمة ، رحلات صيد ، نزعات ،
خمر ، نساء ، أطباق لحوم ، حور عين (يسحرن
ابن القارح لآكنه يميل عنهن لعلمه انهن من نساء

(١) انظر ابو العلاء المعري د. عائشة عبد الرحمن - بنت الشاطيء -
ص ١٧٢ اعلام العرب رقم ٣٨ ،

الدنيا . . .) .

كما تعج جنة الففران بحركة أخرى هي الحركة النفسية التي لا تقل صخبا وعنفًا من الحركة الحسية : فمن اضطراب نفوس المحرومين ، الى حنين الموعودين الى خوف وحذر واغراء وانتظار وانفعال الى . . . ويلف كلتا الحركتين نقد وسخرية علائيين بارعين . اليك مثلاً واحداً على ذلك : يمضي بابن القارح ملك من ملائكة الجنة الى شجر الحور ، فيكسر ثمرة فتخرج منها حورية باهرة الحسن ، فيسجد اعظاماً لله القدير ، ويخطر له وهو ساجد ان هاذة الحورية على حسنها ، ضاوية نحيلة ، فيرفع رأسه وقد صار من ورائها ردف ضخم يهوله . فيسأل الله تعالى أن يقصر عودها على قدر معين . فيقال له : « أنت مخير في تكوين هاذة الجارية كما تشاء » . .

لقد أصبح ابن القارح حر الارادة غير مجبر كما كان يعتقد في الدنيا وان الله هو الذي أراد له ذلك (لاحظ النقد الديني) كما أصبح خبيراً بمقاييس الجمال وقد بدا كأنه أعرف بها من ربه . . . لفضوله وحرصه على أن تكون له جارية حوراء ممشوقة القد لا عيب فيها . .

هاذا مشهد من مشاهد جنة أبي العلاء القابع في سرداب المعرفة المظلم ، مشهد مسرحي حسي يجسد اللذة ويداعب الجمال ويصحح المفاهيم والقيم .. الادبية والدينية. .. هاذا الأعمى الذي طالما حمد الله على العمى كما حمده غيره على البصر ، لا تجد في جنة « غفرانه » عاهة – من أي نوع – لقد انقلب الجميع شبانا أماليد أو حورا عين .. لعله قانون التعويض مرة أخرى ، وتبلغ بأبي العلاء سخريته في الرسالة الى درجة يخيل لنا معها بأنه لا يؤمن بكل ما رآه ابن القارح في الجنة أو النار من مواقف وأوضاع وأحكام، لا سيما حين نربط بين سخريته ونقده هنا وبين بعض أبيات اللزوميات والفصول والغايات التي يظهر فيها الشك والسخرية وعدم الاطمئنان جليا واضحا *

لاكننا نقول ان ما يظهر في رسالة الغفران من سخرية وشك وتجريح ما هو الا ايمان بازدراء هاؤلاء الأدباء واللغويين الذين لقيهم ابن القارح في الجنة ووجدهم لا يستحقون ذلك المقام الرفيع اذ وجدهم لا يزالون على حمقهم وسخفهم وتخاصمهم ، وليس شكاً في الذات الالهية : في الرسالة عبث عقلي وآخر لغوي وآخر نقدي أدبي

لا أكثر ولا أقل . . يعوض به أبو العلاء عما فاتته
صنعه في دنياه . .

وهو في كل ذلك العبث يأتي بالممتع حقاً . .
وهاذا من غرائب فكر المعري وأسلوبه (١) . .
يملاً كيانه هاذاً المحروم بكل ما اشتهى ويعوضه عن
كل ما فقد . . ولم يكن أبو العلاء بحاجة الى كل
هاذا الخيال العريض ليصف لنا ما تمناه وأحبه في
الحياة بل نراه يصرح قبل « الغفران » وبعدها
بأنه أحب النساء والاطفال ، والزواج وانجاب
البنين والبنات ولاكنه أقلع عن كل ذلك وكرهه
لأنه هو « الخسيس » الناقص الآلة . . ولأنه لا
يريد لهم يتما أو ثكلاً أو أن يكونوا مصدر عقوق :

لو ان بني أفضل أهل عصري

لما آثرت أن أحظى بنسل

فكيف وقد علمت بأن مثلي

خسيس لا يجيء بغير فسل ! . .

(١) يضيق المجال هنا في سرد روائع فكر وفن أبي العلاء في رسالة
الغفران ، فالأفضل الرجوع إليها ومطالعتها برمتها .
المؤلف

ومن رزق البنين فقير ناء
بذلك عن نوائب مسقمت

فمن ثكل يهاب ومن عقوق
وأرزاء يجئن مصمات

وينقلب السحر على الساحر ويصبح هذا المحب
كارها وهذا الأب مؤثرا العقم على الايلاد والعدم
على الوجود :

أرى ولد الفتى عبئا عليه
لقد سعد الذي أضحى عقيما

فاما أن يربيه عدوا
واما أن يخلفه يتيما (١)

واما أن يصادفه حمام
فيبقى حزنه أبدا مقيما ..

وتراه لا يفتأ ينفي زهده ويلح على النفي ..
فهو ليس بزاهد بمعنى التنسك والانتقطاع عن
الدنيا .. انها مجاهدة .. محاولة قهر للرغبات

(١) انظر : ابو العلاء المعري د. عائشة عبد الرحمن ص ١٨٠ وما
بعدها + سلسلة اسلام العرب رقم ٣٨ +

التي تزدهم في صدره . . وما أغزرها ، وللأمانني
الراض التي تملأ كيانه ، وما أكثرها . . ذلك
لأنه كان في صراع دائم مع نفسه :

مهجتي ضد يحاربني
أنا مني كيف أحترس ! . .
فكيف يكون زاهدا مستسلما :

وقال الفارسون حليف زهد
وأخطأت الظنون بما فرسته

ورضت صعاب آمالي فكانت
خيولا في مراتعها شمسنة

ولم أعرض عن اللذات الا
لأن خيارها عني خنسته

وحين بلغت به المكابدة أقصى مداها والمجاهدة
أقصى مراتبها وجد الخلاص من كل هاذم المعاناة
بالموت . . والموت دون سواه . . وبدأ طيفه يراوده
عن منامه ويقض عليه مضجعه الخشن . . ويزخر
به شعره . . كل شعره . . حتى انه فكر يوما
بالانتحار « لولا انه أشفق من التبعة وخاف غوائل

السبيل بعد الموت .. « (١)

وهو يشير الى ذلك في رسالة الغفران : « قد كدت الحق برهط العدم من غير الاسف ولا الندم ، ولكنما أخشى قدومي على الجبار .. » (٢) فقد مل الحياة وطال به العمر .. فلم العيش دون آلة العيش ؟ .. ولم الصراع والكبت والحرمان .. ما دام الانسان مقودا برغمه الى البلى .. ولم لا يطلبه الانسان ويسعى اليه بدلا من انتظاره في كل لحظة .. حسبه لذة الانتصار على الموت بدلا من مرارة الاغتيال .. ولكن .. ليكون النصر للموت .. ولوعة انتظاره الطويل .. وليكن للشاعر الكبير نصر آخر هو أقوى من الموت وأبقى من العدم :

نصر تجسيده أملا يرجى وغاية تستطاب ...
نصر غنائه والهديان به وتعميق الاحساس بمحنه ..

وحين رأى أمه رثى نفسه .. وحين رثى أباه
رثى آماله وأمانيه .. ومن خلال مراثيه كان يرثي
— في الواقع — الانسانية كلها .. هاذي الانسانية

(١) ابو العلاء المعري د . عائشة عبد الرحمن ص ١٨٢ سلسلة اعلام

العرب رقم ٣٨

(٢) رسالة الغفران ..

التي لا تملك مع الموت الا أن تغيب فيه كأن لم تكن . . ولا يبقى منها ما يتحدى الموت سوى : الفن . . . وأبو العلاء كان من بين الخالدين . . لأنه كان فنانا كبيرا . . .

أبو العلاء الأديب الملتزم :

عندما قلنا ان شيخ المعرة لم يكن منتميا الى عصره بمعنى الرفض والتنكر للقيم السائدة والتفرد، بل الى عصر آخر تحترم فيه انسانية الانسان وتقدر فيه المواهب حق قدرها لم نكن نقصد انه غير منتم الى مجتمعه وشعبه وأمته . حتى وهو ينقد القيم ويهجو الدنيا ويحقر الانسان كان يهدف الى اصلاح المعوج واخراج الانسان من حيوانيته وأنانيته اذا كان حاكما . ومن ذله وهوانه اذا كان محكوما مستضعفا . .

وبالرغم من عزلته وقسوته على جسده لم يكن هاربا ولا ناجيا بنفسه ولا ناسيا هموم أمته ومجتمعه . بل على العكس أصبحت أبوته أكثر اشراقا وحنانا وبات متحررا من علاقاته وانتماءاته، فيما لو ظل بين الناس . أصبح طليق التأمل نافذ

البصيرة قادرا على التمييز والتشخيص ، حرا « من
قيود الرغبة والرغبة » على حد قول بنت الشاطيء
لا يخاف حاكما يحدد اقامته وقد حددها قبله ..
ولا يخون حقا التماسا لرزق أو جاه .. ولا يلجم
لسانه رياء وزلفى .. فهو ما باع الدنيا - على
تعلقه بها - الا ليشترى كرامته ، وحرية رأيه
وصدق كلمته ..

المنطلق راسخ الاركان .. والرسالة جاهزة ..
والأبوة ناضجة .. وحب المستضعفين في دمه ..
والعصر الموبوء يرفده بكل صور القهر (١) والظلم
والاستغلال .. وهو وحده في الميدان : وانهمرت
الكلمة الصراح وتفجر الحرف - اللهب ..

مل المقام فكم أعاشر أمة
أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلمو الرعية واستجازو كيدها
وعدو مصالحها وهم أجراؤها

فكم قطعوا السبيل على ضعيف
ولم يعفو النساء من الهجوم ..

(١) بالإضافة الى القهر الكوني وجبرية الحياة مجيئا وزهابا - المؤلف.

وتراه - كالفارابي - يدعو الى مدينة فاضلة
امامها نبي عادل ، أو فيلسوف حكيم :
متى يقوم امام يستقيد لنا
فتعرف العدل أجيال وغيطان

فقد عم الشر السهل والجبل * والحجاز « عن
الخيرات محتجز » و « تهامة معدن التهم » و « الشام
شؤم » و « ليس اليمن في يمن » و « يشرب الآن
تثريب » * * * ذلك لأن من يسوس الامور لا عقل
له ولا ضمير :

يسوسون الأمور بغير عقل
فينفذ أمرهم ويقال : ساسة * *

أما فقهاء الدين وواعظوه فعاہرون ماكرون * *
يحرمون الخمرة على الناس عند الصباح ويجاهرون
بشربها عند المساء فلا خجل ولا حياء :

رويدك قد غررت وأنت حر
بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صباحا
ويشربها على عمد مساء
تحساها ومن مزج وجرف
يفعل كأنما ورد الحساء

يقول لكم غدوت بلا كساء
وفي لذاتها رهن الكساء ! ..

وإذا كان المصلي يقيم الصلاة ليستر شروره
وآثامه .. فترك الصلاة أفضل ...

إذا رام كيدا بالصلاة مقيمها
فتاركها عمدا الى الله أقرب ...

وسكنى الصوامع ليست دليلا على النسك
والتقى :

لمرك ما في عالم الارض زاهد
يقينا ولا الرهبان أهل الصوامع ...

وشكوى المظلومين تنقلب أدعية حرى يصعدونها
الى السماء فتستجاب سريعا :

خف دعوة المظلوم فهي سريعة
طلعت فجاءت بالعذاب المنزل
عزل الأمير عن البلاد وما له
الادعاء ضعيفا من عازل
— لا شيء في الجو وآفاقه
أصعد من دعوة مظلوم

والخير ليس في صيامك أو قيامك أو تصوفك :
ما الخير صوم يذوب الصائمون له
ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحا
ونفضك الصدر من غل ومن حسد

أما المذاهب فهي التي أضعفت الدين وأفسدت
اليقين حين وظفت لخدمة الرؤساء :
انما هاذم المذاهب أسبا
ب لجلب الدنيا الى الرؤساء
كالذي قام بجمع الزنج بالبصر
ة والقرمطي بالاحساء

ما الحل اذن وما الدواء في خضم هاذم البلاء ؟
الموت هو الحل ما دام الظلم والدجل والاستضعاف
وهدر الكرامات والأنايات هي البضاعة الرائجة *
وما دام الضعيف المستضعف قابلا قانعا لا يهتز ولا
يتحرك ولا يثار * فليثار له وليتكلم بلسانه
وليعبّر عن وجدانه :

لعل الموت خير للبرايا
وان خافو الردى وتهيبوه
أطاعو ذا الخداع وصدقوه
وكم نصح النصيح فكذبوه

وغير بعضهم أقوال بعض
وأبطلت النهي ما أوجبوه

صبحنا دهرنا دهرنا وقدا
رأى الفضلاء ألا يصحبوه

الى آخر هاذة الصيحات والنقمت والانتقادات التي
ما كان لغير أبي العلاء أن يصعدها نداء ثائرا حينما
* * ودعاء رحيمًا حينما آخر * * وسخرية مرة أحيانًا
* * بكل الصدق وكل الايمان * *

أسلوبه الأدبي :

شيء واحد أساء الى أبي العلاء أدبيا وشاعرا
هو : التحذلق التعبيري واللفوي أو ما يسمى
بالفرنسية Préciosité (١) وهو آفة يقدر ما
هو ميزة : به يغفل الأديب أو الشاعر يدي أدبه

(١) يذكرني ابو العلاء بالاديب المسرحي الفرنسي المشهور جان جيروودو
Jean Jiroudou (١٩٤٤) فقد كان متذلقا ورمزيا معقدا وقد
عانينا في ترجمة اهم اثاره الى العربية الشيء الكثير لا سيما :
سدوم وعمورة ومجنونة شايبو ولن تقع حرب طروادة والكثيرا *

ويشبط همة أسلوبه ويثقل جناحي خياله ويصبح
الأدب - خاصة الشعر - الهية لغوية، وعلى الأصح
أحجية مطلّسة تستدعي من القارئ - هاذا اذا لم
ينفذ صبره - أن يفتح القواميس باستمرار ليفهم
المراد ويفك اللغز . . غير ان الاديب المتحذلق اذا
كان موهوبا يستطيع أن يخفف من تحذلقه بما
يسبغه على أسلوبه من رمز وخيال وما يضمنه من
فكر . . وهو القائل : يقول أبو العلاء

لا تقيد علي لفظي فاني
مثل غيري تكلمي بالمجاز

وهاذا ما استطاع المعري أن يفعله فوفق أحيانا
كثيرة ولم نعد نستثقل ظله في اللزوميات مثلا أو
رسالة الغفران فقد شغلنا بأشياء أخرى ممتعة كسطحات
الخيال والسخرية البالغة والدعاب المضحك (١) .

(١) يقول طه حسين : قد نسرف على انفسنا وعلى الفن الادبي ان
ظننا ان شعر اللزوميات جيد كله من الناحية الفنية الخالصة
وانما المحقق ان الجيد من شعر اللزومات قليل يمكن ان يستخلص
في مجلد نحيف يجمع الى الجمال الفني خلاصة الفلسفة العلائية .
انظر كتاب « مع ابي العلاء في سجنه طه حسين ص ١٣٢ وما
بعدها دار المعارف ١٩٦٣ »

والحوار الشيق والوصف والتمثيل والروح الأبوية
والمعاني التأملية البعيدة حتى نسينا (في الرسالة)
كل ما شحنه من مباحكات لغوية وجدل بيزنطي بين
الأدباء واللفويين القدامى حول كلمة واحدة أو
قاعدة معينة * * * وكذلك حالنا مع اللزوميات (١)
وسقط الزند *

كما يشغلنا المعري بكثرة التصوير الحسي وحب
الاستشهادات المختلفة والولوع بالتحدي وإظهار
البراعة وكثافة المعرفة والذكاء الحاد في ملاحظة
أوضاع الحقيقة التي يعمد الناس إلى قلبها أحيانا
وفضح كل ذلك بالسخرية الجارحة حيناً والدعابة
اللطيفة حيناً والنقد والتصحيح بأستاذية ملحوظة
في جميع الأحيان * *

وإذا زعم العقاد أن رسالة الغفران « ليست
بالبدعة الفنية ولا بالتخيل المبتكر » * * * فإن
الباحث المعروف لدوار أميل البستاني يرد عليه
قبلنا قائلاً : « فلو أخذنا بهذا المقياس (مقياس
العقاد) ونفيينا الخيال إلا عن الذين أتوا بصور

(١) مطالعات في الكتب والحياة ص ٧٨ *

لا تحاكي شيئاً ولا يشبهها شيء ، ولا تذكر القارئ
بشيء ، لأسقطنا من مرتبة الخيال جميع شعراء
الارض (١) » .

ونحن نقول ان هذا الخيال التصويري الحسي
ديناميكي حي ومتحرك تسيره الروح العلائية
الساخرة المميزة والرؤية النافذة الى صميم الاشياء
والاشخاص وحتى الألوان نفوذا لا يستطيعه
المبصرون من الشعراء . ولولا الأستاذية اللغوية
التي أثقلت هذا الخيال لقلنا ان أبا العلاء قد جاء
بالمعجز حقاً في تصوير الجنة كما يشتهيها المؤمنون
.. صحيح ان كل ما فعله أبو العلاء هو انه
(استطرف شيئاً تليداً » كما يقول طه حسين غير
ان « عميد الأدب » العربي في الثلاثينات غاب عن
باله ان « استطراف التليد » عملية داخلية في صميم
الصنيع الفني لا سيما حين يفعل ذلك أديب موهوب
وشاعر مبدع كأبي العلاء بحيث يخرج القديم على
يديه وكأنه بعث من جديد حياً مشعاً مشحوناً بخصائص
الشاعر الذاتية من حيث التصور والفهم والذوق

(١) ابو العلاء المعري - متأمل في الظلمات ادوار امين البستاني ص
١٤٧ سلسلة المصابيح - بيت الحكمة - بيروت ١٩٧٠ .

يسيره عقل وروح جديدان ويطغى عليه أسلوب
فريد * زد على ذلك ان أبا العلاء استطاع في
رسالة الغفران أن يرتفع بالأسطورة الى مستوى
الاحتمال والامكان وأن يضمنها فلذات من الاشارات
الادبية والتاريخية والعقائدية فيجعلها واقعا معاشا
في ثوب أسطورة ، أو أسطورة في ثوب واقع (١) *
واذا الكل يضج بالحياة * *

حتى الحروف والمقاطع والمفردات والعبارات
والأسباب العروضية والروي والقافية لها في فمه
مذاق خاص يلوكها ويتلذذ بها كسكرة تحت عرق
لسانه * * لاكنها سكرة لا تذوب نهائيا بل تبقى
تمده بالحلاوة ما شاء * * * وهي أحيانا تنهمر على
أذنيه انهمار الحياة في العروق أو تضح وتضطخب
كما السمفونية ولا نشاز * * أو تتجسد له في
الظلمة الدامسة المحيطة به كائنات حية : تحس ،
تفكر ، تتمنى وتتألم * * اسمعه يسخر على طريقته
بعلماء الصرف والنحو :

(١) انظر رسالة الغفران : منزل الخطيئة في طرف من اطراف الجنة
* * واشباه ذلك * ص ٣٠٧ *

اتت علل المنون فما بكاهم
من اللفظ الصحيح ولا العليل

ولو ان الكلام يحس يوما
لكان له وراءهم أيل (١)

وحين يتحرر أبو العلاء من « العقدة اللغوية »
في شعره أو قبل أن « يشرب عقله الحائر ماء الشعر
ورونقه (٢) » وكان ذاك في مراحل تفتق شاعريته
الأولى ، نجده ينطلق بطبعه على سجيته ، وبأسلوبه
على سهولته وعفويته مع عناية ملحوظة بهندسة
التعبير لجهة بلاغته كالتقديم والتأخير والنداء
وتجاهل العارف والطباق دون اكثار أو تعمل أو
تعقيد *

نلاحظ ذلك بوضوح في سقط الزند وهو من
بواكير أبي العلاء الشعرية حيث ينساب الشعر
انسيابا أو يضج ضجيجا حسب انهماك العاطفة
وصخبها وهي عاطفة جياشة صادقة في الحالتين *
وخير مثل على ما نقول قصيدته الرائعة :

(١) دائرة المعارف ج٤ ص ٤٦١ د. جبور عبد النور *

(٢) على حد تعبير ادوار امين البستاني *

غير مجد في ملتي واعتقادي
نوح باك ولا ترنم شادي

فهي في ميزان الفن قطعة فنية خالدة خلود الصدق
والعفوية والتأمل الفلسفي في حقيقة الحياة والأحياء
.. قطعة ارتفعت عن مناسبتها الحزينة الخاصة الى
أن أصبحت مراثاة للانسانية كلها ..

كانت رثاء لأحد أصدقاء أبي العلاء ولداته (١)
.. فأصبحت رثاء لكل انسان ولكل وجود .. كل
ذلك في ترابط توليدي مدهش بين الافكار واندفاع
للمشاعر المأساوية التي يحس بها الشاعر احساسا
عميقا وصادقا .. والمدهش في هاذة المراثاة ان
الأسلوب فيها لا يطغى مطلقا على المعاني فلا تعقيد
ولا تله بروي أو قافية أو غير ذلك مما سنراه في
اللزوميات ومصنفات العزلة العلائية .. ومن هنا
استنتج النقاد المعاصرون صدق العاطفة فيها ولم
يجدوا أبا العلاء ينصرف عنها الى العقل وتعقيداته
اذ لا يزال العقل العلائي — هنا — في بدايات تطلعه
ومعرفته وغناه .. فانصرف شاعرنا بكليته العاطفية

(١) ويدعى ابا حمزة وهو فقيه من فقهاء المذهب الحنفي ، خطيب
يدعو الى الخير وراوية ثقة ، وناسك ..

الى صديقه يرثيه أصدق الرثاء وأشدّه وقعا على
كل نفس * * فنجح في هذا كل النجاح وحلق في
أجواء التأمل الفاجع بمصير الانسان والانسانية ،
وصاغ هناك حكمته التي بلورها ومسحتها العاطفة
بزيت الصدق والمشاعر النبيلة فأحسسنا كأنها
مرثاة لكل واحد منا فأشجانا * * وبكى وأبكى (١) !

العقل امام بل نبي :

مرة أخرى يتجنى الباحثون ، بعض الباحثين ،
على أبي العلاء فيسلبونه حقا نحاول نحن هنا أن
نرده اليه * * وهو حقه الصريح بلقب فيلسوف أو
على الأقل متفلسف *

فلسفة باسكال تبدأ في اثبات انيته بالكوجيتو
الشهير : أنا أفكر اذن أنا موجود

وأبو العلاء قبل باسكال بأكثر من ألف سنة
أحس بانيته وبوجوديته حين ألح على امامة العقل
ونبوته في فهم كل وجود والتوصل الى كل حقيقة
حتى حقيقة الدين ان لم تكن خاضعة للعقل فهي

(١) انظر الى هاذة المرثاة في المنتخبات المثلثة اخر الكتاب *

ليست بحقيقة • وحين تعاملت الفوغاء بالدين وحدها ونأى العقل عنه أو أدعياء العقل في زمانه تمسك هو بعقله ورفض الدين كما فهمه المتاجرون به أو كما تمسكت به الفوغاء تمسكا ايمانيا أعمى • • ثم هاذا التفرد العلائي باحتضان الذات والانطلاق في فهم نفسه وحقائق وجوده من خلال العقل لا النقل أليس في هاذا اثبات لانيته أو هويته والحاح عليها ؟!

صحيح ان باسكال فيلسوف وصاحب المنهج والطريقة الرائدین ، لاكن أبا العلاء بايمانه المطلق بالعقل يبدو لنا فيلسوفا - ولو بغير طريقة أو نهج - لا سيما حين تخلى كثيرون من فلاسفة الاسلام عن العقل قبل أبي العلاء وآمنوا بالحدس أو الفيض طريقا الى المعرفة الحقيقية كالأفلاطونيين والأفلوطينيين والمتصوفة ، والاشاعرة • وبعده كالغزالي وسائر الفرق الاسلامية المتأثرة به • هاذو الفرادة لأبي العلاء من بين أكثر الشعراء والفلاسفة العرب تهيب بنا الى الوقوف طويلا أمام هاذا الأعمى - البصير وهاذا الشاعر المتأمل الفيلسوف ، اذ ليس عيبا على المفكر - الشاعر ، أو الشاعر - المفكر لا فرق ، ألا يكون له نهج معين أو موقف موحد امام

قضايا الله والطبيعة والانسان والمجتمع والمصير
وحقيقة النفس : مبدأها ومنتهاها ..

حسبه وحسب أبي العلاء انه كان فيلسوفا من
نوع آخر : نوع جديد .. غير تقليدي. ولا اتباعي
يرى في العقول اليونانية أو العقل الأرسطي خاصة
منتهى الابداع فيقف عندها أو عنده ، وقفة تلميذ
خاشع أمام أستاذه متهيب .. لا ينبس الا بما يقوله
أستاذه ولا يتحرك الا بإشارة منه ولا يفكر الا
بعقله ..

لقد تعالى أبو العلاء عن كل هاذا وفهم الوجود
والموجود وجميع الحقائق بعقله هو - وعلى طريقته
الخاصة - لا بعقول الآخرين مهما كانوا .. انه
بتعبير آخر فيلسوف انتقائي يعجبه هاذا المذهب
فيقول به .. ويحلو لعقله ذاك فيؤمن .. ثم ان
وجده - بعد التحليل العقلي الاخير - غير صالح
أو فاسدا رفضه ونادى بغيره وهاكذا هو بين انتقاء
واختيار وغريلة ، يبرز دائما فوق الجميع وبحرية
مطلقة وفراة قل نظيرها ..

ونحن اذا فهمنا الفلسفة فهما كلاسيكيا محدودا
وانها طريقة ونهج وقدرة على التجريد الذهني

والاستقراء والمنطق سقط تحت الغريبال جميع
الفلاسفة القدامى ما عدا أرسطو . . وفي النهضويين
ما عدا باسكال . . وعذرا من جميع المقتبسين
والمقلدين من فلاسفة المسيحيين والمسلمين واليهود .

أما اذا اعتبرنا الفلسفة بالمقياس الجديد — نظرة
صائبة الى الوجود والموجود مجردة عن الهوى . .
عقلانية باستمرار . . على تخلخل أحيانا واضطراب
ولاكن على اخلاص وفراة واصرار . . فان من
كانت هاذة صفته وذاك اتجاهه فهو فيلسوف . .
شاء التقليديون أم أبو . . . لا سيما اذا راعينا
شؤونه وعصره وخصوصيته .

يقولون ان « فلسفة » أبي العلاء لم تكن تغلو
من الخيال والعاطفة . . وقبله أفلاطون لم تكن
تغلو فلسفته من الخيال والعاطفة والأسطورة ، مما
جعل تلميذه أرسطو يشن عليه حربا لا هوادة فيها
ولاكنه رغم ذلك لم ينزع عنه صفة الفلسفة . .

ترانا نفالي ونشتط في هاذة المقارنة أم ماذا ؟
لا شك ان التقليديين من المؤرخين وأصحاب الافكار
الجاهزة سلفا ، سوف ينكرون علينا هاذا التطاول

على عمالقة الفلسفة في الشرق والغرب حين نقارن بينهم وبين أبي العلاء ولو من زاوية واحدة : زاوية التأمل البعيد في الكون والكائنات والنظرة الصائبة فيها : صائحين في وجهها : هاؤلاء أصحاب نظام ومنهج وموقف معروف ومبادئ جاؤوا بها فأين نظام صاحبك ومنهجه وموقفه ومبادئه ؟

نظام صاحبي - أولا وبكل بساطة - انه كان صادقا مع نفسه مخلصا لوحى عقله * ومنهجه انه كان مبدعا لا مقلدا وانتقائيا لا خاضعا أو مسيرا * وموقفه : انه كان ثائرا انقلابيا ، كل حقائق الوجود لديه قابلة للتغيير والنقد والسخرية أحيانا * * لا شيء ثابتا عنده * * لا مقدسات * * لا حقائق الا ما خضع لسلطان العقل والعقل وحده (١) * * حتى اذا عجز العقل عن ادراك حقيقة ما فليس هاذا عجزا من العقل في حد ذاته بل هي مرحلة تطور بلغها العقل في سيره الوائب ونموه المطرد ولم يستطع معها ادراك تلك الحقيقة ادراكا تاما * وسيأتي حين من الدهر على هاذا العقل يصل فيه الى كل شيء ويدرك كل حقيقة * * أليس العقل نبيا في نظر

(١) الا يذكرنا ابو العلاء بالفيلسوف الفرنسي الساخر فولتير ؟

أبي العلاء ؟ والنبوة جزء من الألوهة أو شيء قريب منها . .

أما مبادئه : فليست من النوع التجريدي الاستقرائي الذي يصوغ العموميات من الخصوصيات بل ان مبادئه تجسدية وبكلمة أصح : للمعري آراء ومبادئ منتزعة من صميم الواقع المعاش والعقائد السائدة : يتعامل معها . . يحاورها . . يرفضها . . يعلو عليها : مكونا له مبادئ مقابلة هي النقيض دائما . .

ثم هو فيلسوف لأنه كان من دعاة العقل مبشرا بامامته ونبوته في عصر فقدت فيه القيم وشوهت الحقائق . . واستبعد العقل . . بل استبعد . .

بالعقل حمى حرите وكرامته وبه سخر من المقلدين وتعالى على الظالمين والدعاة ، وبه فضح المزيفين والمتاجرين بالانسان وبالدين . . تبعه قائدا واماما ومستشارا بل نبيا :

كذب الظن لا امام سوى العقل
مشيرا في صبحه والمساء

فاذا ما أطعته جلب الرحمة
عند المسير والارساء

— أيها الفران خصصت بعقل
فاسألنه فكل عقل نبي

— فشاور العقل واترك غيره هدرا
فالعقل خير مشير ضمه النادي ..

ويعجبه من أرسطو منطقته وبرهانه فيدعو اليه
والى اجتناب ما يبطله :

ولا تصدق بما البرهان يبطله
فتستفيد من التصديق تكذيبا

ويربط أبو العلاء الفساد في المجتمع الى عدم
الاصغاء لصوت العقل واتباع الهوى والفرض ..
أليس هاذا هو سبب الفساد في كل عصر ؟ ...
والمنجمون السحرة — لا علماء الفلك — الذين
يرجمون بالغيب : هاؤلاء يسيئون الى العقل كثيرا
حين يبطلون دوره الاوحد في فهم حقائق الأمور :

سألت منجمها عن الطفل الذي
في المهد كم هو عائش من دهره ؟

فأجابها مئة ليأخذ درهما
وأتى الحمام وليدها في شهره * *

لاحظ السخرية التي لا يتخلى عنها أبو العلاء
في كل ما ومن ينقد * *

أفلا يحق لنا أن نسميه بعد الجاحظ فيلسوف
السخرية في الأدب العربي ؟

اسمعه يتابع ساخرا ومشفقا في آن :

شكا الأذى فسهرت الليل وابتكرت
به الفتاة الى شمطاء ترقيه

وأمه تسأل العراف قاضية
عنه النذور لعل الله يبقيه

وأنت أرشد منها حين تحمله
الى الطبيب يداويه ويسقيه * *

انه يؤمن بالعلم ويهزأ من العرافين والسحرة الذين
يستغلون سذاجة العوام ويوهمونهم ان الرقى
والنذور تشفي الامراض * * كما يهزأ بالذين
قالو ان السودان اختصو باللون الاسود لأن جدهم

حام دعا عليه أبوه نوح فاسود لونه * * وقد سبق
بهاذا ابن خلدون بنحو أربعة قرون :

ما اسود حام لذنب كان أحدثه
لكن غريزة لون خطها الملك

أما في الماورائيات وبعض أسرار الحياة كخلود
النفس والحساب والبعث فان العقل يدركها على
نحو من التجريد أو هو يفهمها فهما نظريا * * أي
يخضعها للقوانين العامة وبالتالي يمتطقها اذا صح
التعبير * * ولكنه لا يحسم فيها — كما يفعل في
المحسوسات — بل يحدس * * يظن * * يطمئن ايمانه
ويرضي فضول العقل دون أن يملأه يقينا :

سألتموني فأعيتني اجابتم
من ادعى انه دار فقد كذبا

أما اليقين فلا يقين وانما
اقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا

غير ان هاذا لا يعني أن يستبدل العقل بأداة
أخرى — كما فعل الغزالي والمتصوفة والاشراقيون
اجمالا — وظل أبو العلاء مؤمنا بالعقل معتمدا عليه
رغم بعض قصوره * * وهاذه ميزة علمية فلسفية

تضعه خارج عصره وتقربه من الفلاسفة العقلانيين
النهضويين . .

وان عقلا لا يرفدك بكل شيء ولا يقدم لك
حلولاً لكل قضية أو جواباً عن كل سؤال وتبقى تلح
عليه وتستنجد به ولا تلوذ بغيره . . ان عقلاً كهذا
ليشقي صاحبه ويضنيه . وأبو العلاء شقي بعقله
وأضناه . . حين جعله اماماً فما هداه ونبيا قلما
خلصه أو شفاه . . لانه ما تنكر له ولا كفر به
- كغيره - بل ظل يطلب منه الجواب . . ولا جواب !
. . انه شقاء أصحاب العقول أمام المجهول . . وما
أمره ! . ويعجبني قول للباحث نجيب مخول في هذا
المجال : « شقاء الوجود في الوجود دواؤه ، وشقاء
الحياة في الحياة شفاؤه . لكن الوجود والحياة شيء
وفهم الوجود والحياة شيء آخر . الوجود سخرة ،
ان شئت ، يمكن الانسان تحملها . أما محاولة فك
لفز الوجود والحياة فسخرية لم يتمكن الانسان ،
حتى الآن ، من الاقلاع عنها (١) » .

واذا كان المجتمع قد فسد في أيامه فلأن الناس

(١) انظر كتاب : الفلسفة العربية في موضوعات موسعة ص ١٩١
نجيب مخول منشورات مكتبة انطوان - بيروت ١٩٧٠ .

— حكاما ومحكومين — لم يعملو العقل في تدبير
شؤونهم ولم يصفو الى ندائه في التعامل والتعايش
وتفسير القيم والقوانين .. وكان البديل : سيطرة
المواطف والأنانيات والمصالح الخاصة ..

انما الآفة المستمرة حتى يومنا هذا : تعطيل
دور العقل ..

ومن هنا نجح أبو العلاء في نقد كل فساد والهاء
بكل شأن ..

وفي رأي أحمد أمين ان سبب نجاح أبي العلاء
يعود الى أمرين :

الأول : ان الأمور الاجتماعية والاخلاقية التي
بعدها هي من صميم اختصاص العقل : « فالعقل
أداة صالحة لربط الاسباب بالمسببات * والأمور
الاجتماعية والاخلاقية تجارب تحدث فتحدث نتائجها
تظلم المسؤولين والحكومات فتسوء حال الأمة وتعطل
حالتها ... »

والسبب الثاني : ان ناقد هاذه الأمور متمتع
بكثير من الحرية ... » الخ (١) *

(١) انظر كتاب مقام العقل عند العرب ، ١٥٢ قدري حافظ طوقان *

العقل أمام الله :

لم يكن شك المعري في الماورائيات ناتجا عن
جحود لوجود الله . . بل لأن ستائر الغيب والمصير
كثيفة لا يستطيع نور العقل أن يخفف من كثافتها
وبالتالي فلا يقين بل شك مؤقت أي تعليق حكم . .
الى أن يهتدي العقل يوما في تطوره وتساميه . .

أما الله فلا شك في وجوده لأن العقل هو الذي
يهدي اليه ويدل عليه لا الأديان ولا الانبياء . . .
العقل يحتم أن يكون لهاذا الفلك الدائر بانتظام
مدبر قدير أحكم قوانين دورانه . . ولهذا
المخلوقات خالق عظيم « خلق الانسان في أحسن
تقويم » وخلق لكل شيء قوامه ونظامه . . وهذا
ما قالته الفلاسفة وأكدتة الحكماء :

فلك يدور بحكمة وله بلا ريب مدبر
فاللهال المنيف والبدر والفرقد والصبح والثرى والماء
هاذه كلها لربك ما عابك في قول ذالك الحكماء

أمام كل هاذة العظمة يقف — بل يجب أن
يقف — العقل خاشعا مقدسا والانسان محتسبا
منيبا . . فالله يعرف بالدليل العقلي واستقراء

حقائق الأشياء * * أما كيف هو وأين هو وما صفاته
فأمور لا طاقة للعقل بها * * وقد ضل ضلالا كبيرا
كل من بحث في ذلك كالمعتزلة والأشاعرة وعلماء
الكلام عموما وفلاسفة الاسلام خصوصا حين قاسوه
على ما يعرفون من صفات الانسان * * فانتهو الى
خبط وعسف وكذب :

أما الاله فأمر لست أدركه
فاحذر لجيالك فوق الارض اسقاطا
يخبرونك عن رب العلى كذبا
وما درى بشؤون الله انسان
والله أكبر لا يدنو القياس له
ولا يجوز عليه كان أو صار * *

فالاه أبي العلاء سر يعلو على كل بحث ويستغلق
على كل فهم لانه يعرف من خلال مخلوقاته * *
انه الاه منطقي - كالا ه أرسطو - وليس الاه
الاديان * * أو كما فهمه علماء الكلام * *

أما العناية الإلهية أو ما يسمى بالأجنبية
La grâce divine فقد فهمها أبو العلاء فهما
فلسفيا خاصاً * فالله لا يهتم بجزئيات الامور ولا

بالأفراد أشرارا كانوا أو أخيارا * * * وحين يقع
الظلم أو ينزل الخير في بلد فليس لأن فيها ذلك
الشرير أو هاذا الخير * * * بل لأنها أقدار مقدرة
وقوانين محكمة ونواميس تجري الطبيعة بموجبها،
وحين يقع المقدور فليس لعقاب الافراد أو ثوابهم ،
اذ لا شأن لهم كأفراد في نظر الله :

تورعو يا بني حواء عن كذب
فما لكم عند رب صاغكم خطر
لم تجدبو لقبيح من فعالكم
ولم يجئكم لحسن التوبة المطر
- وانما هي أقدار مرتبة
ما علقت باساءات واجمال

وهو ينكر الجبرية ويقول بحرية الارادة
لانسانية كما قالت المعتزلة لأن ذلك يتنافى مع
لعقل ومفهوم العدالة ولا يجوز على الله أن يجازي
المجبر * * * تماما كما قالت المعتزلة :

ان كان من فعل الكبائر مجبرا
فعذابه ظلم على ما يفعل
أما أبياته الثلاثة الشهيرة :

قلتم : لنا خالق عليم
 قلنا : صدقتم ، كذا نقول
 زعمتموه بلا مكان
 ولا زمان ، ألا فقولوا
 هاذا كلام له خبيء
 معناه ليست لنا عقول ..

فكل ما أراده بها هو ألا يخضع الله لمقاييس
 الزمان والمكان والحيز والأين والكيف الى ما هنالك
 (قاطيفورياس) من المقولات الأرسطية العشر
 التي تعين صفة الشيء وبالتالي Catégories
 وجوده .. بل أراده له — كما أراد الدين — أن يكون
 فوق الزمان والمكان وخارج كل امكان .. أزلياً
 أبدياً لا بداية له ولا نهاية (١) .

أما انكاره لبعث الرسل والأنبياء والوحي
 فتهمة لم نر لها ما يبررها سوى انها حكم متسرع
 على بعض أبيات للمعري يحذر فيها من الجدل في
 بعث الأنبياء وارسال الرسل وتحكيم العقل في
 القضية :

(١) للتوسع انظر : الفلسفة العربية في موضوعات موسعة ص ١٩٩ .

قد طال في العيش تقييدي وارسالي
من اتقى الله فهو السالم السالي
وأرقب الأهل في عسر وفي يسر
واترك جدالك في بعث وارسال

والتحذير من الجدل في ذالك لا يعني الانكار * *
وانما هو - كما يقول طه حسين - « غير مطمئن
الى النبوات وهو محتاط الى اعلان شكه فيها (١) » *
وفي الفصول والفايات يثني أبو العلاء على النبي
محمد أكثر من عشرين مرة ويستشهد بأحاديثه
وكلماته * *

أما الطقوس الدينية والفرائض فقد يعمل بها
ويدعو اليها ما عدا الحج * * * وعلى كل حال فهو
معفى منها كلها لو أراد بموجب الشريعة الاسلامية
القائلة بصريح الآية « ليس على الأعمى حرج ولا
على المريض حرج » * * وما دام أبو العلاء مؤمنا
بالله ايمانا عقلانيا حرا فلنغفر له بفض خطاه
الذي تحلل لنفسه فيه ما لا يجوز حين هجا الانبياء

(١) مع ابي العلاء في سجنه طه حسن ص ٢٠٠ دار المعارف بمصر
١٩٦٤

وتمادى في ذلك .. نغفر له لقاء ايمانه بالله ..
ولعل هذا الذي صرح به كان نتيجة سورة غاضبة
وتشنج لم يدم طويلا :

ولا تحسب مقال الرسل حقا
ولكن قول زور سطروه !!

وكان الناس في عيش رغيد
فجاؤو بالمحال فكدروه

= أفيتو أفيتو يا غواة فانما
دياناتكم مكر من القدماء

أرادو بها جمع الحطام فأدركو
وبادو فماتت سنة اللؤماء !!

أي حطام هو هذا الذي جمعه الانبياء الزاهدون
يا أبا العلاء !!! .. لانه هذيان الشاعر الحائر
في لحظة من لحظات ضيقه وتبرمه برجال الدين
الذين جعلوه يكفر حتى بالدين نفسه لكثرة ما رأى
وسمع من ظلمهم وكيدهم وابتزازهم وتزويرهم
للحقائق .. هذا المروق والكفر الصريح لا يشكل
موقفا نهائيا بل هو حالة .. وحالة وجدانية عابرة
سرعان ما يعود عنها الشاعر الى دنيا التوبة

والاعتراف والرضى العقلي .. أو على الأقل الى دائرة الشك وتعليق الحكم .. فهل نحاسبه على الحالة أم على الموقف ؟ نترك الجواب للذين رموه بالكفر والزندقة قدامى ومحدثين قبل أن ينظروا الى أنفسهم وحال دينهم ورجال دينهم .. ثم لعله قصد الأديان الوثنية .. من يدري ؟

كان يصوم ويصلي ويزكي .. ثم ألم تكن حياته كلها صوما (١) وصلاة وزكاة وضراعات آناء الليل وأطراف النهار ؟! وأي مال فائض يزكيه .. زكاته كانت مقاسمته خادمه نصف ايراده الذي لم يكن يتجاوز الثلاثين دينارا ... زكاته كانت عطاؤه، وعطاؤه كان أدبه وعلمه وأبوته وعطفه على تلامذته ورواد مجلسه ودعوته الحارة الى احترام انسانية الانسان المستضعف والحيوان المستهدف، حتى أديم الارض له من أبوته نصيب ...

وما رأيك بانسان يصوم طوال عمره عن الدنس والاثم ثم يرى في الموت عذابا فظيما ؟! ..

(١) انا صائم كامل الدنيا .. شاربي الخمر وشاربي الخمر ..

العقل أمام الانسان والنفس الانسانية :

يرى أبو العلاء ان الانسان جزء من الله ونور من أنواره ، فلا بد والحالة هذه أن يكون مثل هذا الانسان قديما خلقه • أقدم بكثير مما قالته الكتب وجاء به الرسل • والافلاك التي نسبوا اليها العقول لم تكون أقدم من الانسان ؟

ومولد هاذي الشمس أعيك حده
وخبر لب انه متقاد

وما آدم في مذهب العقل واحدا
ولكنه عند القياس أوادم

دائما العقل والقياس هما اللذان يرشدان أبا
العلاء الى حقيقة الاشياء لا المعروف أو الموروث من
أقوال الغير حتى ولو كان هاذي الغير نبيا مرسلا • •
وهو يلتقي مع الفلاسفة في القول بقديم العالم :

خالق لا يشك فيه قديم
وزمان على الأنام تقادم

جائز أن يكون آدم هاذي
قبله آدم على اثر آدم

ولقد سما حتى على أفلاطون في مسألة التناسخ
حين اعتقد هاذا الفيلسوف هو والمتأثرون به ان
النفس تنتقل من جسم الى جسم لتتطهر . . فحذر
قائلا بشيء من السخرية الهادئة :

يقولون ان الجسم تنقل روحه
الى غيره حتى يهذبها النقل

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة
اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

وليس جسوم كالنخيل وان سما
بها الفرع الا مثلما نبت البقل

أو بشيء من الرثاء المر :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لسكان البسيطة أن يبكو

يحطمنا ريب الزمان كأننا
زجاج ولاكن لا يعادله سبك'

كما يلتقي مع أكثر الفلاسفة في انكار خلود
النفس وبعث الاجساد . . في الواقع هو يلتقي مع
عقله لا مع أي شيء آخر أو شخص آخر . . فيترجم

عنه سواء أَرْضَى بِذَلِكَ الفلسفة أو الدين أو
أَغْضِبَهُمَا .. لا فرق ..

أَتَرْجُونَ أَنْ أَعُودَ إِلَيْكُمْ
لا ترجو فأنني لا أعود
ولجسمي إلى التراب هبوط
ولروحي إلى الهواء صعود

الجسم يعود إلى مادته .. إلى التراب .. أما
الروح فعنصر لطيف يتبدد بعد الموت في الهواء ..
هاذا ما يقوله العقل :

أما إذا شاء الله - وهو على كل شيء قدير -
أن يبعثها بعد الموت فله ذلك :

والله ينشر أرواحا بقدرته
ويبعث الفيت في أرواحه النشر ..

وتراه يلهو في اللزوميات بالنفس ، فتارة هي
أرسططاليسية كما رأيت وتارة هي أفلاطونية
سينوية كما ستري :

النفس عند فراقها جثمانها
محزونة لدروس ربع عامر

كحمامة صيدت فثنت جيدها
أسفا لتنظر حال وكر دامر

وتقفز رأسا إلى الذاكرة عينية ابن سينا *
لاكن أبا العلاء لم يتعمق في حقيقة النفس عند ابن
سينا * * وليس من شأنه هاذا هنا * * ولا هناك *
لقد قال رأييه في الموضوع * * وهو هنا يتلهى *
يستعرض * * لا أكثر * * واذا كان هاذا يسمى
تناقضا فهو في الجزئيات وليس في اتجاهه العام * *

العقل أمام الحياة العملية

المجتمع ، الاخلاق ، التعامل مع الناس ، كلها أمور بحاجة الى العقل . . الى استشارته دائما والعمل بوحيه . . وأبو العلاء يرى ان كل ما يجري بين الناس في مجتمعه قائم على الأنانية أو الظلم ، أو التسرع ، أو التعصب ، أو التقليد أو الاستغلال . . وهي آفات يحاربها العقل ويدعو الى التسليح بنقيضها . .

وأبو العلاء رغم يأسه من صلاح مجتمعه لا يعلن افلاسه في ذلك بل يعلن — في عزلته — ان العودة الى العقل ومشاورة العقل والعمل بنصيحة العقل يمكن أن يصلح من حال الناس وتقويم اعوجاجهم وانحرافهم . . وهذه ناحية ايجابية في فلسفة أبي

العلاء التي طالما نعتت بأنها فلسفة هدامة يائسة
من كل صلاح واصلاح لايمان صاحبها بغريزة الشر
المطبوعة في الانسان منذ كان ..

الخير موجود يدركه الانسان بمجرد التفكير
ه .. العقل يشير اليه .. بل هو يشير الى نفسه :

من أراد الخير فليعمل له
فعليه لذوي اللب علم

واذا مارست فعل الخير للخير لا للثواب تصبح
ثلا وقدوة فينتشر بين الناس :

والخير يعدي كغادي مزنة هطلت
أرضا فلما رآها رائح هطلا

فلو عقل الناس ما تمايزو ولا تنايدو بالألقاب
لما استغل بعضهم بعضا ولما كان بينهم غني على
حساب فقير :

يا قوت ، ما أنت يا قوت ولا ذهب
فكيف تعجز أقواما مساكينا
وأحسب الناس لو أعطو زكاتهم
لما رأيت بني الاعدام شاكينا

وفي أعلى مراتب الصحو العقلي والتألق
الوجداني ينهمر الفكر العلائى بأحدث الآراء
الاشتراكية ولو بقلب عاطفي غير مقونن :

لو كان لي أو لغيري قيد أنملة
من البسيطة خلت الأمر مشتركا

والامام علي ليس في الاعتبار الانساني أفضل
من خادمه قنبر ولا العربي أفضل من البربري ..
دعوة الى المساواة معروفة قالت بها الأديان ونادى
بها الاسلام لاكنها من فم أبي العلاء ومن عقله
وووجدانه ذات مذاق خاص ووقع مميز ..

لا يفخرن الهاشمي
على امرئ من آل بربر

فالحق يحلف ما علي
عنده الا كقنبر

— وما نأت القرابة عن رجال
أبوهم يافث وأبوك سام

ويطرح عقله قضية المواريث والانصبه فيراها
في معظم الشرائع جائزة غير منصفة .. وتعتلج في

أعماقه شاعر البنوة الصافية وتتراعى له دائما
أمومة أصفى وأكثر حنانا فيهتف منتقدا تقسيم
الموارث والسهم الذي تصيبه الأم من ارث ابنها
وهو السدس أو (٤٠٠ سهم) فقط من ٢٤٠٠
بينما البنت لها النصف والزوجة الربع ! . . .

والأم بالسدس عادت وهي أرأف من
بنت لها النصف أو عرس لها الربع !

الى آخر هاذة الحملات الشعواء والانتقادات الهادفة
التي أقضت مضجع أبي العلاء على خشونته ولم
يسكت عن الزيف والدجل والظلم طيلة حياته مع
أنه بمنأى عن مواقعه وعن أذى أصحابه . . لاكنها
عاطفة الأبوة والحب العميق الذي يحمله
للمستضعفين في الارض فلو كان متشائما يائسا من
صلاح الناس - كما زعم أكثر مؤرخيه - لما رأينا
في تضاعيف كل قصيدة وفي خبايا كل خفقة من
خفقات وجدانه تلك اللمعة العارمة تتعاضد كلما
ظهر له باطل أو حدثوه عن ظالم . . وحين دعا
الرجال الى عدم الزواج بل الى الخصى كيلا ينجبو ،
والناس جميعا الى الموت ، واختصار الحياة وفضل
القبر على البقاء . . لم يفعل ذلك ولم يدع اليه

عن تشاؤم أصيل فيه رغم بلائه العظيم ، وظلام
حياته المستمر وحنس ليله المقيم ، بل فعل ذلك بعد
أن بح صوته وطال عذابه مع من لا يفهمون أنفسهم
ولا يقدرّون قيمة انسانيّتهم وكرامتهم ولا يشورون
على واقعهم في مجتمع جعل منهم وقودا لمطامع
حكّامه وأضاحي لشهواتهم . . فخير لمثل هاذا الانسان
أن يموت دفعة واحدة من أن يموت كل يوم . . وقد
رأينا في فصول سابقة كم كان أبو العلاء محبا
للحياة والأحياء ، مقبلا على الدنيا في مطلع شبابه
وبدء رحلاته رغم عماء . . يوم كان يقول منشدا
آماله وأمانيه :

سقيّا لأيام الشباب
وما حسرت مطيتيّا
أيام آمل أن أمس
الفرقدين براحتيّا

لاكن الدنيا لم تقبل عليه بل كالت له الصفة
تلو الصفة ، ورغم هاذا ظل يغازلها ويخطب ودها
عله يصلح من شأنها وعله يبلغ فيها ومنها ما يريد
من شهرة وسعادة ومجد وأولاد . . وحين اعتزلها لم
يلق سلاحه نهائيا بل ظل موصول القلب والعاطفة

بالناس .. بالمساكين من الناس .. بالطيبين منهم
.. بطلاب المعرفة .. بالمحبين الذين لا تزال في
عقولهم وقلوبهم بقية فضل وكرامة وحب ..

كلا ! لم يتشأءم أبو العلاء أصلا ومزاجا ..
أقولها تكرارا .. بل « قرفا » ومقتا لانسان تاه
عن حقيقته .. ومجتمع راج فيه كل شيء الا
العقل والقلب والضمير .. وأديان شوهت حقائقها
وغاياتها وقلبت مقاييسها وأصبحت أشبه بالمتاجر
منها بالمنائر ...

هاذا هو أبو العلاء :

فقد آن لنا أن ننظر اليه بالمنظار العلمي الجديد
.. وبالعقل المعرفي المجرد .. لا أن نجري مع
الفكر السلفي والمفكرين التقليديين الذين رأو في
هاذا المفكر الحر عالة على الدنيا والدين وعبئا
ثقيلا على الانسانية، يدعو الى الخلاص منها بالخصي
وقطع النسل والموت .. وهم لو عقلو مثله وتجردو
لقالو قوله وآمنو بما آمن وشكو بما شك .. لاكن
مصيبة أبي العلاء معنا انه يجرو حين نجبن ويعبر
حين نعجز عن الكلام ويصرح بما يضر ونحن

نضمر غير ما نصرح . .

ولو أنصفو وتجردو لرأو فيه مفكرا عقلانيا معرفيا كبيرا وانقلابيا خطيرا واصلاحيا ثوريا وساخرا حرا يفضح الزيف ويكشف المزيفين ويعري حقائق الكون والحياة والأحياء . . فاذا بها أمامك غير ما لقنتها واذا بها غير ما قدستها . .

وخير ما أختم به هاذة الدراسة المتواضعة لفكر أبي العلاء وحقيقته قول للباحث المعروف نجيب مغول يقيم به عقلانية أبي العلاء: « لا شك ان المعري شاعر مفكر . لآكنه في نظر الفلسفة أكثر من شاعر ومفكر : انه رمز العقل البشري الحائر الوثاب في آن واحد ، غير المحدود في عظمه ، وغير المحدود في صغره على ما قال باسكال عن الانسان صاحب هاذا العقل . . فوق ذالك كله لأبي العلاء منزلة خاصة بين نوابغ الشرق : هاذة البلاد كانت أقرب من غيرها الى السماء : عن طريق السماء أتى أكثر ساستها ، عن طريق السماء برز أكثر علمائها ، عن طريق السماء فكر أكثر فلاسفتها . . أما المعري فكان فيها رسول العقل ونبيه ، وبالعقل شقي فأصبح ضحية من ضحاياه . . . » الى أن يقول : « لو قيض للفكر الشرقي أن يتطور تطورا طبيعيا

بعد أبي العلاء لرأينا العقل يعمل عمله عندنا ،
في العلم والفلسفة ، ولما كنا في مؤخرة الركب
الانساني . . أما روحانيتنا فلا خوف عليها لأن
جذورها آخذة في أعماقنا ، أكبر دليل على ذلك
أبو العلاء نفسه ، فهو مع عقلانيته الشامخة
المتمردة ، ومنع كل ثورته المحمومة على التقاليد ظل
مؤمناً بالله خالق اتقاه وخشع له والتمس عفوه » .

الى طلاب البكالوريا اللبنانية - القسم

الثاني - فرع الفلسفة

أعرف مثلكم أيها الأعزاء ان المعري ، وان كان مفروضا في منهجكم الرسمي اللبناني ، الا أنه نادرا ما جاء في الامتحانات الرسمية . حتى اذا جاء أعرضتم عنه الى غيره : كالفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد وابن خلدون .

مع انه في نظري أمتع وأخف ظللا وأقرب الى النفوس . . والكتابة في آرائه وفلسفته أسهل وأنجح . . .

مسكين أبو العلاء : لقد ظلمه عصره لأنه لم يفهمه . . فأعرض عنه . . وظلمناه نحن لأننا

فهمناه .. خطأ .. في أكثر الأحيان .. فأعرضنا عنه .. وهاذه الدراسة دعوة متواضعة الى فهم أبي العلاء فهما حديثا ، ومحاولة لرفع الغبن عنه والأذى اذ يكفيه ما لاقى ، وما يلاقي .. سيظهر لكم انه كان محبا لا حاقدا .. ومتفائلا .. لا متشائما .. محبا للمستضعفين - أمثالنا - لا للطفاة .. محبا للعقل والعقلاء - مثلنا - لا لمشوهي العقل والعقلاء .. ومزوري القيم والقوانين والشرائع .. والمتاجرين بالله ! .. اقرأوه - اذن - لا لتكتبو عنه في امتحاناتكم .. مخافة أن يصيبكم بعض فشله وسوء حظه .. بل لتدافعوا عنه في نواديكم ومحاضراتكم ، ولتباهلوا به امام بيرون ولوكريس وأبيقور وفاليري وشو .. وحتى ديكارت ...

ومن أراد منكم نموذجا للبحث في آراء أبي العلاء ومواقفه وأسئلة دورات تختص به فاليكم هي :

للمطالعة

١ - موضوع نموذجي مفصل :

قال المعري :

أيها الغر ان خصصت بعقل

فاسألنه فكل عقل نبي

أ - اشرح هذا البيت وبين رأي المعري في العقل ،

وقيمة المعرفة العقلية (٦ علامات) •

ب - ما صلة العقل بالدين عند المعري • ابن ذالك

في نموذج من الشواهد •

ج - هل كان لأبي العلاء رأي ثابت في مسألة

المصير ؟

د - أذكر الدوافع والاسباب التي قادت المعري الى

التشاؤم (١٤ علامة) •
دورة ١٩٧٤ الثانية

الأفكار الرئيسية

أ - شرح البيت :

أيها الفتى المغرور بأشياء الشباب من مجد
و ثروة وصحة وعقيدة * * ما قيمة كل ذلك اذا
كان العقل الذي خصك به الله دون سائر المخلوقات ،
لا تعمل به ولا تهتدي بهديه * * ما قيمة ارثك
وتراثك ودينك اذا تقبلت كل هاذا بالتقليد
والتبعية ، دون أن تستشير يوما عقلك اذا كان كل
ما أعطيته صحيحا * وكل ما تؤمن به حريا بالايمان
أو الثقة أو التقديس •

ان الحقيقة - أيها الفتى - لا يمكن أن نعتبرها
حقيقة ساطعة قاطعة الا اذا جاءتنا عن العقل :
هاذا النبي الاول - في نظر أبي العلاء - الذي عن
طريقه يعرف النبي الثاني - أو الرسول - وتفهم
رسالته * *

في جميع الأديان دعوة صريحة الى تقديس العقل

البشرني والرجوع اليه - وواضح ان المعري يقصد العقل المثقف المتحرر - حتى الايمان الديني اذا لم يكن ايمانا عقليا ، فلا قيمة له ولا فائدة * وطالما سبب الايمان الموروث شكا وأزمات نفسية لدى كبار علماء الدين أنفسهم * * وخير دليل على ذلك الغزالي * *

ثم ان العقل هو الطاقة الوحيدة التي تحمل من مشكاة الألوهية الشيء الكثير وقد خصصت بها وحدك أيها الانسان فاستشرها في كل شيء وفي كل حين * فهي النبي قبل أي نبي :

فشاور العقل واترك غيره هذرا
فالعقل خير مشير ضمه النادي

والطاعة المطلقة لا تجوز الا لله * والعقل نور الله في الانسان : يكشف العمى ، ويجلب الرحمة والهدى :

فاذا ما أطعته جلب الرحمة عند المسير والارساء

وهاكذا نجد ان المعرفة النقلية لا قيمة لها على الاطلاق اذا لم تؤيدها أو تحل محلها المعرفة

العقلية ، فهي المعرفة اليقينية لا سواها • ودع
عنك ما يؤمن به أصحاب الحدوس والاشراق • •
ب - ما صلة العقل بالدين عند المعري • ابن
ذلك في نموذج من الشواهد •

مصيبة المعري - أو فضيلته - لا أدري ، انه
لا ينظر الى الدين الا بمنظار العقل المخزون بألف
سؤال وألف شك لا سيما وهو يرى الى الدين وقد
أصبح ألعوبة بأيدي تجار الدين ومزوريه • • وحتى
الدين يرى فيه أباطيل وأساطير لا ينكرها الكثيرون
بل يؤمنون بها • • فكيف لا يكفر المعري بالدين • •
بل بالأديان جميعا ؟ وهو يرى التجسيد يصبح
عقيدة والتقليد يمسي ميزانا للمعرفة ، والتشبيه
ينقلب ايمانا ، والتنجيم والسحر والشعوذة يعمل
بها وكأنها تنزيل من التنزيل ؟! كيف لا يطلق
صيحته الحاسمة قائلا :

اثنان أهل الارض ذو عقل بلا

دين وآخر دين لا عقل له

مصيبتة ان عقله تمادى فكفر • • وان رجل

الدين تمادى في جهله فهجر • •

رجل الدين تمادى في جهله فهجر • •

أما الله فشيء آخر : يؤمن به أبو العلاء لأن

العقل يشير اليه بدليلين على الاقل هما : دليل
العلة والمعلول ، ودليل العناية الالهية (للتوسع
انظر صفحة ١٤٥ و ١٤٦) .

مولاك مولاك الذي ما له
ند وخاب الكافر الخاخذ

فلك يدور بحكمة
وله بلا ريب مدبر . .

فالهلال المنيف والبدر والفرقد والصبح والثرى والماء
هاذه كلها لربك ما عابك في قول ذاك الحكماء

كل هاذه العناصر والأجرام والكواكب دليل
على وجود ربك . . بهاذا قالت الفلاسفة وبهاذا
يشير العقل فلا تخشى بعد ذلك أن يعيبك أحد .

ويلتفت أبو العلاء الى الفرق الدينية الاسلامية
فيرى خلافا يبلغ حد العنف والاقتيال ، ولا يرى
حوارا ، ولا محبة ، ولا طلبا للحقيقة الدينية
لذاتها . . فهذا معتزلي ، وذاك أشعري ، وذاك
مرجىء ، وذاك حشوي أو تشبيهي ، أو علوي ،
أو فاطمي ، أو قرمطي الى آخر السلسلة غير الذهبية .
. . والحاكم فوق كل هؤلاء مستغل مبتز لا هم له

سوى زيادة الطين بلة ...

كما يلتفت الى الاديان الاخرى فيرى الشيء نفسه
والقتال نفسه والتهافت نفسه :

كل يمجّد دينه يا ليت شعري ما الصحيح !

والجواب المؤلم الذي يفرض نفسه على أبي
العلاء : لا صحيح !! الا ما أثبتته العقل ودل عليه
البرهان .. وهو قليل ..

ج - هل كان لأبي العلاء رأي ثابت في مسألة
المصير ؟

من خصائص الفكر العلائي انه فكر تساؤلي
تأملي حائر .. وبهذا امتيازه على سائر الافكار
التسليمية في عصره .. انه فكر مستقبلي - اذا
صح التعبير - وبالتالي حضاري ، حين لا يكتفي
بتقبل وجود مفروض من الغير : سواء كان هاذ
الغير الله أو الطبيعة أو الانسان .. بل يحاول أن
يكون وجودا خاصا به : وجودا حرا مثاليا يحلم به
ويتطلع اليه .. لكن الوجود المفروض يضغط عليه
ويشده الى الواقع المرفوض ..

وبين فكي الفرض والرفض بين القبول والشك
يعتصر عقل الانسان وقلبه وتبرز مأساة الراضين
.. وبمقدار ما يكثر الرفض والتساؤل والشك
تحقق الانسانية مصيرا أفضل على هاذة الارض
ومجتمعا أمثل ..

ومأساة أبي العلاء انه كان رافضا لمصيرين لا
مصير واحد : الاول مصير الانسان على الارض وقد
وجد له حلا بالعزلة ورفض القيم السائدة .

لاكن المصير الثاني وهو الاكثر هولاء والأعمق
مأساوية : مصير الانسان بعد الموت ، هو الذي
حاول عقل المعري أن يحله بعد أن لاب حوله كثيرا
وتساءل كثيرا غير انه تحطم على أبوابه الموصدة
وراح ينشد بل ينشج أروع أشعاره وأعمق أفكاره
.. ويشركنا معه أشد المشاركة لأنه غنى لنا أعمق
مشاعرنا ورثا لنا حتمية النهاية المفجعة للانسانية
المعذبة : تأتي الى الحياة مكرهين ونحيها حائرين
مروعين .. ثم تغادرها مرغمين ٢ * نعلم قبل
الوداع بجمهورية عاقلة أو مدينة فاضلة أو
الاهية (١) ، أيام التداعي والانهيار ، فيبقى الواقع

(١) اشارة الى كتاب « مدينة الله » التي حلم بها القديس
أوغسطين ،

واقعا والحلم حلما * * وعزاء الحالمين انهم يهددون
الفاجعة ولو الى حين * * وينيرون شمعة صغيرة في
حندس الليل الطويل * * *

والمعري من هاؤلاء الحالمين الواقفين أمام الباب
المرصود يدقونه بعنف ولهفة ولا جواب * *

أليست مأساتنا - والحالة هذه - مثلثة الابعاد
كثيفة الظلال باعثة على الرثاء والبكاء اذا صادفت
فكرا حائرا لا يطمئنه دين ولا يقين، وقلبا ثائرا
لا يخفف أشجانه وآلامه أي أمل * * أو بأرقة حل *

فكيف لا يبكي المعري ولا يرثي المصيرين وهو
حامل هم العصر والانسان والمصير !؟

تواجهه - وهو المؤمن بالله - مسألة خلود
النفس وحشر الاجساد فيعرضها على عقله
فيرفضها وعلى ايمانه فيقبلها وما هو يقبلها مترددا
في حوارية عابثة :

زعم المنجم والطبيب كلاهما
لا تحشر الاجساد قلت : اليكما :

ان صح قولكما فلست بخاسر
أو صح قولني فالوبال عليكم * *

انه موقف يترجح (١) بين العقل والايمان ،
بين العلم والدين .. يعرضه المعري بأسلوبه
الساخر العايب ، لعله يرضي الطرفين .. وقد
فعل .. وحين يطفئ العقل على كل شيء يرفضها
وينكرها في رثائية كثيبة :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لأبناء البسيطة أن يبكوا
تحطمننا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعادله سبك ..

ويا لها من مهزلة تلك التي ما نكاد نضحك لها
حتى نبكي منها ! .. كلنا صائر الى فناء .. وليس
من هاذا الفناء مخرج .. وبعد الفناء .. فناء
ولا قيامة .. ولا سبك للزجاجة بعد كسرها ..

انه حكم للعقل قاس مجرد من كل ايمان أو
امكان .. أو لطف لإلهي .. غالى به المعري وتمادى
كأبيقور في سالف الزمان (٢) .. فالى أين تذهب

(١) لا يقال تارجح بل ترجح (انظر لسان العرب مادة رجح)
(٢) انظر كتاب : مع أبي العلاء في سجنه طه حسين ص ١٧١ وما
بعدها - دار المعارف ١٩٦٤ .

الروح بعد فناء الجسد ؟ الجواب : الى المجهول !!

الروح تنأى ، فلا يدري بموضعها
وفي التراب، لعمرى، يرفت الجسد

لاكن الله قادر على اعادة الاجسام وبث الحياة
فيها من جديد :

.....

ان قال ربي لأجسام البلى : عودي
فذاك وعدة وعهده و :

« حاشا لربك من اخلاف موعده » * *
فهو يترك مسألة الحشر لله الذي يؤمن به ويقر :

أقر بأن لي ربا قديرا
ولا ألقى بدائعہ بجحد

أما اذا عرضها مباشرة على عقله فالموقف
يختلف تماما * *

تشاؤمه ! :

أما تشاؤم أبي العلاء فلنا فيه رأي خاص قد
يكون خاطئا : وهو ان التشاؤم مزاج سوداوي ينشأ
معه الانسان منذ الصغر وينمو مع الايام فيصبح

قاتلا . . لاكن أبا العلاء لم ينشأ على مثل هذا
المزاج - رغم عماه - بل اننا نفهم من سيرته
وحقيقة نفسيته أنه كان مقبلا على الدنيا تواقا
الى اللهو واللذة تواقه الى المعرفة والشهرة . . وما
ذهابه الى بغداد - في شبابه - وتطوافه في الحواضر
السورية والعراقية ومراكز العلم الا طلبا لكل
ذلك . . لكن المجتمع بأوضاعه السائدة والفاصلة
يومذاك غيرت حاله من اقبال الى ادبار . . ومن رضا
وقبول الى رفض وشك ونقمة . . على أن روح
المرح والدعابة لم تفارقه حتى في أسوأ حالاته . .
بل تحولت الدعابة الى سخرية ونقد مريرين . .
والمرح الى جدية وانكماش صارمين . . وانقلب
أبو العلاء معها الى رافض عنيد لا سيما حين اعتزل
لائذا بعقله وبعقله وحده . . وراح يطل على
الناس ناعيا عليهم وجودهم وقيمهم وعقائدهم . .
مقترحا له ولهم حلا وحيدا هو : الموت بشتى
صوره . . .

فكيف أقبل عليهم . . ثم كيف أدبر ؟ ومن
السبب ؟

لم يكن هو السبب : بل كانوا هم السبب في

الحالتين .. اذن : لم يكن أبو العلاء متشائماً على الإطلاق .. كان انساناً مفجوعاً بآماله حالماً بسعادة دنيوية تعوض عليه بعض ما فقده ، لكنها كانت سرا باً .. فحين ينمى انسان عقلاني على الناس فساد عنصرهم وتحاسدهم وتكالبهم وظلم بعضهم لبعض وتماديهم في كل ذلك .. لا يكون هاذاً الانسان — في نظري — متشائماً أبداً ولا يائساً .. بل انساناً مشفقاً على أخيه الانسان صارخاً في وجه الطغاة ان توقفو .. وفي وجه النيام ان استيقظو .. وحين لا يجد آذاناً صاغية بل امعانا في الظلم والنوم والاستسلام .. ماذا تريد من شاعر متأمل صادق حساس أن يفعل تجاه ذلك ؟ هل يخدرنا بمعسول الآمال الكاذبة القائلة بأن الانسان لا بد له من فجر بعد ليله الطويل — كما فعل ويفعل شعراؤنا — أم يواجهنا بالحقائق المرة ؟ ويصفعنا بواقعنا صفعاً .. حين يجرده ويعريه ؟!

ومثى كان قول الحقائق ولو جارحاً صادراً عن متشائماً ؟!

لست أفهم لماذا نعتوه بالمتشائمين ونسبو تشاؤمه الى عماه ومزاجه وفهمه السلبي للقيم والمجتمع ..

كأن المجتمع والقيم يجب أن تفهم دائما فهما
ايجابيا وتقبل على علاقتها والا فمنتقدها ومحطها
ورافضها انسان متشاؤم .. ونحمد الله على أن
الشيوعية لم تكن معروفة في أيام أبي العلاء والا
لنعت بها حين تصدى للنظام والحكام ورجال الدين
.. على ان فيلسوفنا لم يسلم من تهم مشابهة
كالكفر والالحاد والزندقة والمروق والعقوق الى
آخر هاذة السلسلة غير الذهبية من التهم الباطلة
التي يواجه بها كل مثقف صادق ملتزم حر في كل
زمان ومكان حفاظا على الفساد وأهله ..

واذا كان أبو العلاء قد غالى في هجومه وتمادى
في سوء ظنه بالحياة وبالأحياء فليس ذالك منه
تشاؤما ولا يأسا .. وانما كان قولة حق ولو مرة
.. وضربة حر ولو قاتلة .. ولو كان من بعده
الطوفان .. فالاحرار امام الحق اما قاتلون أو
شهداء .. ولا وسط !!!

لم يكن منتظرا من مثله أن يضحك حيث يجب
البكاء .. وأن يهادن حيث تجب الحرب .. وأن
يصمت حيث يجب الكلام .. وأن يطلب الحياة
حيث يجب أن يطلب الموت .. بل أن يصدق مع نفسه

وربه •• حيث كذب الدعاة وناقى المتاجرون ••
فخير للبشرية ألا تكون على أن تكون كما وجدها •

ونحن نلاحظ ان أبا العلاء رغم كل هذا البلاء
والفساد في الانسان والمجتمع ظل على حبه
للمستضعفين في الارض حتى الحيوان لم يشأ أن
يؤذيه بذبحه وأكل لحمه •• أما المجتمع فلا شك
في أنه كان يحلم — لا سيما في شبابه — بمجتمع مثالي
عقلاني تسود فيه المحبة والحكمة والعقل والعدل
والمساواة •• « فاذا به يتبين الواقع الفاجع حيث
لا أثر لما أراده وتمناه (١) » •

وهاكذا نجد ان المعري لم يكن متشائماً بالمعنى
الفلسفي للكلمة بل كان انساناً عقلانياً مفجوعاً
بآماله وطموحاته ، أصابه نوع من « القرف » بلغ
به حد الغثيان من تفاهات وأباطيل لم يملك الا أن
يبصق عليها •• دما من قلبه ووجدانه وبيانه ••

فعاش في قلوب الأجيال المتطلعة الى غد أفضل ••
وخلد كما يخلد الحق والفن والحرية •••

(١) انظر : دائرة المعارف د. جبور عبد النور ج٤ ص ٤٦٣ •

٢ - أسئلة أُلقيت في دورات مختلفة :

في امتحانات البكالوريا اللبنانية - فرع الفلسفة -

١ - قال أبو العلاء :

ان مازت الناس أخلاق يقياس بها
فانهم عند سوء الطبع أسوء
فما معنى هذا القول وكيف علله صاحبه ؟ وهل
تراه مصيبا في نظرته الى أبناء المجتمع ؟
(دورة ١٩٥٩ الأولى)

٢ - قال أبو العلاء :

اثنان أهل الارض ذو عقل بلا
دين وآخر دين لا عقل له
وقال :

إذا رجع الحصيف الى حباه
تهاون بالشرائع وازدراها ..

اشرح قوله مشيرا الى ما يذكرك من آرائه في
الأديان ، والعوامل التي أذكت ثورته عليها ،
وناقشه في جوهر فكرته مستندا الى البرهان
والواقع .

(دورة ١٩٦١ الأولى)

٣ - جاء في قول لأبي العلاء المعري :

يقولون ان الجسم تنقل روحه
الى غيره حتى يهذبها النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة
ه اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل
وضح المعاني التي أشار اليها المعري في هاذين
البيتين وبين :

- رأيه في الديانات والشرائع .

- موقفه من العقل .

وأيد ما تذكره بإشارات واضحة الى أقواله .

(دورة ١٩٦٢ الثانية)

٤ - يقول طه حسين في « تجديد ذكرى أبي
العلاء » : « والواقع ان أبا العلاء لم يتخذ لنظره
الفلسفي مذهب أهل السنة، ولا مذهب السوفسطائية

وأصحاب الشك ، ولا مذهب المعتزلة أيضا ...
واذا ، فهو يرى رأي الفلاسفة النظريين ، من
اليونان والمسلمين ، في الاعتماد على العقل
خاصة » .

أ - فما معنى هذا القول ؟

ب - وهل في اللزوميات ما يثبتته أو ينفيه ؟ أوضح
ذلك .

ج - بين كيف يتقرر موقف المعري من قضايا
الذين على ضوء موقفه من العقل .

د - هل تجاري حكيم المعرة في قوله :

اثنان أهل الارض ذو عقل بلا

دين وآخر دين لا عقل له ؟

أيد رأيك بأمثلة من الواقع .

(دورة ١٩٧٣)

٥ - قال المعري :

أيها الغر ان خصصت بعقل

فاسألنه ، فكل عقل نبي (١)

(دورة ١٩٧٤ الثانية)

(١) تجد تفصيل ذلك في موضوع نموذجي مبسط (انظر الصفحة

١٦٧ من هذا الكتاب) .

نماذج من « رسالة الغفران »

لقاء ابن القارح بالأعشى في الجنة :

« فيهتف هاتف : « أتشعر أيها العبد ، المغفور له ، لمن هاذا الشعر » ؟ فيقول الشيخ : « نعم ! حدثنا أهل ثقتنا ، عن أهل ثقتهم ، ان هاذا الشعر ليمون بن قيس بن جندل » ، فيقول الهاتف : « انا ذالك الرجل ! مَنْ آلله علي بعد ما صرت من جهنم على شفير ، ويئست من المغفرة » .

فيلتفت اليه الشيخ هاشا باشا مرتاحا * فاذا هو بشاب غرائق (١) وقد صار عشاء حورا ، وانحناء ظهره قواما * فيقول : « سحبتني الزبانية (٢) الى سقر (٣) ، فرأيت رجلا في

(١) جميل ،

(٢) الموكلون بتعذيب الهالكين ،

(٣) من اسماء جهنم ،

عرصات (١) القيامة يتلأأ وجهه تتلأأ القمر ،
والناس يهتفون به من كل أوب (٢) : « يا محمد !
يا محمد ! الشفاعة ! نمت بكذا ! ونمت بكذا (٣) »
فصرخت في أيدي الزبانية : يا محمد أغثني ، فان
لي بك حرمة ! فقال : « يا علي ! بادره فانظر ما
حرمة » . فجاءني علي بن أبي طالب ، صلوات
الله عليه ، وأنا أعتل (٤) كي ألقى في الدرك
الأسفل من النار . فزجرهم عني ، وقال : « ما
حرمتك ؟ فقلت : أنا القائل :

ألا أبهذا السائلي : أين يمت ؟
فان لها ، في أهل يثرب موعدا !
فأليت لا أرثي لها من كلاله
ولا من حفي حتى تلاقي محمدا !

وقد كنت أو من بالله وبال حساب ، وأصدق
بالبعث ، وأنا في الجاهلية الجهلاء . فذهب علي
الى النبي (صلعم) فقال : « يا رسول الله ، هاذا

(١) ساعات .

(٢) من كل جهة .

(٣) نتصل بك بقرابة كذا .

(٤) احمل .

أعشى قيس قد روى مدحه فيك ، وشهد أنك نبي
مرسل » • فقال : « هلا جاء في الدار السابقة ! »
فقال علي ، رضوان الله عليه : « قد جاء ، ولاكن
صدته قريش وحبه للخمر » • فشفع لي ، فأدخلت
الجنة على أن لا أشرب فيها خمرا • فقرت عيناي
بذلك • وان لي منادح (١) في المسل وماء
الحيوان (٢) وكذلك من لم يتب عن الخمر في
الدار الساخرة ، لم يسقها في الآخرة • • • »
وصف الجنة :

« وفي تلك الانهار أوان على هيئة الطير
السابحة ، والغانية عن الماء السائحة • فمنها ما هو
على صورة الكراكي (٣) وآخر تشاكل المكاكي (٤)
وعلى خلق طواويس وبط ، فبعض في الجارية
وبعض في الشط ، ينبع من أفواهاها شراب ، كأنه ،
من الرقة ، سراب ، لو جرع منه جرعة الحكمي (٥)

-
- (١) جمع مندوحة : غنية : لا مندوحة لي عنك : لا غنى لي عنك •
(٢) ماء الحيوان : ماء الحياة •
(٣) جمع الكركي : طائر كبير اغبر اللون طويل العنق والرجلين ،
ابتسر الذنب ، قليل اللحم ، يأوي الى الماء احيانا •
(٤) المكاكي : جمع المكاء : طائر من القنابر كثير الخفوق بجناحيه وله
صفير حسن (من يمكو يصفر) •
(٥) ابو نواس •

لحكم بأنه الفوز ، وشهد له كل وصاف للخمر ،
من محدث وعتيق * * » .

ويعارض تلك المدامة أنهار من عسل مصفى ما
كسبته النحل الغاية الى الانوار * * * ولكن قال له
العزیز القادر : « كن ! » فكان * وآها لذالك
عسلا ! لو جعله الشارب المحرور غذاءه طول
الأبد ، ما قدر له عارض موم (١) ولا لبس ثوب
المحموم * وذالك كله بدليل الآية : « مثل الجنة
التي وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ،
وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمرة
لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها
من كل الثمرات (٢) * » فليت شعري عن النمر
ابن تولب العكلي هل يقدر له أن يذوق ذالك
الأري ، فيعلم ان شهد الغانية ، اذا قيس اليه ،
وجد يشاكه الشرى (٣) * * * » .

(١) مرض البرسام : مرض يصيب الحجاب بين القلب والكبد فيلتهب .

(٢) القرآن الكريم سورة محمد الآية ١٢ و ١٧ .

(٣) يشابه المنطل .

*** يعلق استاذنا الدكتور فؤاد افرام البستاني على هاذ
الوصاف المادية للجنة في رسالة الفقرا ن قائلا : « فاصبح من
يطالع الكتاب ، لأول وهلة ، يرى امامه عمل مسلم مؤمن بكل ما
يروى عن الجنة ، مجتهد في تفسير الايات القرآنية الواردة
بشأنها ، ولاكنه ، اذا قرأه بشيء من الحذر والانتباه ، لا يتمالك =

منزل الحطيئة في أقصى الجنة !

« فيذهب ، فاذا هو بيت في أقصى الجنة ، كأنه حفش (١) أمة راعية ، وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة ، وعنده شجرة قمئة (٢) ، ثمرها ليس بذاك ، فيقول : « يا عبد الله ! لقد رضيت بحقير ! فيقول : « والله ! ما وصلت اليه الا بعد هياط ومياط (٣) وعرق من شقاء ، وشفاعة من قريش وددت أنها لم تكن ! فيقول : « من أنت ؟ » فيقول : « أنا الحطيئة العبسي ! » فيقول : « بم وصلت الى الشفاعة ؟ » فيقول : « بالصدق ! » فيقول : « في أي شيء ؟ » فيقول : « في قولي :

أبت شفتاي اليوم الا تكلمما
بهجر ، فلا أدري لمن أنا قائله !

= من الحكم على خبت المؤلف بما يستغل تلك الايات في سبيله ، فيرى ان ابا العلاء يقيم من الله ، سبحانه وتعالى ، شرطيا قديرا على كل شيء ، ساهرا على راحة مختاريه ، لا عمل له ولا هم الا ارضاء شهوات المفلدين في تلك الجنة المادية .. هاذا العبت بأقدس ما يجل الانسان ، وهذا التهكم بأفضل ما يرجوه ، هو السفر بعينه ، وهو اهم عناصر ما ندعوه « بالروح العلائي » !

(١) الحفش البيت الصغير الحقير : الكوخ

(٢) صغيرة +

(٣) مجيء وذهاب واضطراب شديد +

أرى لي وجهها شوه الله خلقه
فقبح من وجه ! وقبح حامله !

فيقول : « ما بال قولك :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب (١) العرف بين الله والناس !

لم يغفر لك به ؟ فيقول : « سبقني الى معناه
الصالحون * ونظمته ولم أعمل به * * فحرمت
الأجر عليه » * * *

نماذج من شعره :

ضجعة الموت

غير مجد ، في ملتي واعتقادي
نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعي اذا قيـ
س بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غد
ت على فرع غصنها المياد

(١) العرف : المعروف *

صاح ! هاذي قبورنا تملأ الرح
 ب فأين القبور من عهد عاد
 خفف الوطء ما أظن أديم الأر
 ض الا من هاذه الاجساد
 وقبيح بنا وان قدم العهد
 د ، هوان الآباء والاجداد
 سر ان اسطعت في الهواء رويدا
 لا اختيالا على رفات العباد
 رب لحد قد صار لحد مرارا
 ضاحك من تزاحم الأضداد
 ودفين على بقايا دفين
 في طويل الأزمان والآباد
 تعب كلها الحياة فما أع
 جب الا من راغب في ازدياد
 ان حزننا في ساعة الموت اض
 حاف سرور في ساعة الميلاد
 خلق الناس للبقاء (١) وضلت
 أمة يحسبونهم للنفاد (٢)

(١) أي لبقاء النفس بعد الموت ،، هاذي الرأي يغيره أبو العلاء في

اللزوميات وبعد العزلة ،

(٢) النفاد : الفناء ،

انما ينقلون من دار اعدا
ل الى دار شقوة أو رشاد

ضجعة الموت رقدة يستريح ال
جسم فيها والعيش مثل السهاد

قيلت هاذہ القصيدة في رثاء أحد أصدقاء أبي
العلاء المقربين ويدعى « أبا حمزة » : فقيه من
فقهائ المذهب الحنفي ، معتدل ، متساهل في أمر
الاجتهاد ، متنسك ، خطيب يدعو الى الخير .

— رثا أبو العلاء الانسانية جمعاء من خلال رثائه
لصديقه هاذًا .

— لاحظ كيف سيطر العقل فنهض من صميم
الحادثة الخاصة الى النظر الشامل في الحياة
والأحياء . ولكنه ظل مندمجا بالعاطفة . . . فظلت
الحكمة التي هي وليدة العقل مندمجة حارة
كذلك .

— لاحظ أيضا صدق العاطفة حيث اختفى التصنع
اللغوي الذي عرف به أبو العلاء . . فانسابت

العاطفة انسيابا مع الكلم الموهوب والأسلوب
الجنائزي المأساوي المشبوب * * الخ * * (١)

كان يسري في شرايين المعري دم الشهيد ، وفي
قلبه وروحه توق الى الاستشهاد * * طلبه كل يوم * *
وكل لحظة * * فعاش غريبا عن الأحياء قريبا الى
الأموات * * الأحياء * * الى الشهداء الكبار أمثال
سقراط وعلي والحسين * * يرى دماءهم تصبغ
الأفق كل مساء :

وعلى الأفق من دم الشهيد علي ونجله شاهدان
فهما في أوائل الليل بدران وفي أخريانه قمران

كما كان يسري في عروقه أيام الشباب دم يغلي
بالأمنيات العذاب ويفور بنشوة العز والمجد :

الا في سبيل المجد ما أنا فاعل
عفاف واقدام وحزم ونائل

(١) لهذا القصيدة الرائعة تحليل موفق للباحث الناقد المعروف ادوار
أمين البستاني : اطلب كتابه : ابو العلاء المعري : هتاف في
الظلمات

وقد سار ذكرى في البلاد فمن لهم
باخفاء شمس ضوءها متكامل

يهم الليالي بعض ما أنا مضمّر
ويثقل رضوى دون ما أنا حامل

واني وان كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائل

ينافس يومي فيّ أمسي تشرفا
وتحسد أسحاري علي الاصائل

ودم العروبة لا يزال يسري في كيان أبي العلاء
فينطقه في سقط الزند بالرائع من الشعر الوطني
الحماسي ، قال يصف معركة بين العرب والروم :

فلا قول الا الضرب والطعن عندنا
ولا رسل الا ذابل وحسام

فان عدت فالمجروح توسي جراحه
وان لم تعد متنا ونحن كرام

فلما تجلّى الأمر قالو تمنيا
ألا ليت أنا في التراب رمام
ورامو التي كانت لهم واليهم
وقد صعبت حال وعز مرام

وظنوك ممن يطفئ البرد ناره
إذا طلعت عند الغروب جهام
وانك تثنيها قبالة جلق
متى لاح برق واستقل غمام
وقالو : شهور ينقضين بغزوة
وما علمو ان القفول حرام ..

أما فورة الفتوة وعنفوان الصبا والاقبال
فيتجليان في وصفه ليلة حمراء من ليالي لهوه، أين
منه وصف المبصرين :

رب ليل كأنه الصبح في الحسـ
ن وان كان أسود الطيلسان
قد ركضنا فيه الى اللهو حتى
وقف النجم وقفة الحيران
وكأني ما قلت والبدر طفل
وشباب الظلام في العنفوان :

ليلتي هاذة عروس من الز
نج عليها قلائد من جمان
هرب النوم من جفوني فيها
هرب الأمن من فؤاد الجبان

وكان الهلال يهوى الثريا
فهما للوداع معنقان

وسهيل كوجنة ' ب في اللو
ن وقلب المحب في الخفقان

يسرع الملح في احمرار كما تسر
ع في الملح مقلّة الغضبان

ثم شاب الدجى فخاف من الهج
ر ففطى المشيب بالزعفران

وكانها في لا وعيه ظلال الالوان المفقودة
يستحضرها جسّ التحدي .. وكانها ليلة تساوي
ليالي المبصرين جميعا أو تفوقها .. أما اللون
الاحمر فذكرى عزيزة تراوده فيلون به كل باهت
من الألوان ..

أما الحب فنعمة الالهيه - نغق بها قلبه فعشق
على السماع ، وناجى جارته في بغداد وأرسل اليها
طيفه أو زاره طيفها ولاكن الحبيب لم يعشق على
السماع .. فاختلفت الغايتان ولم يتلاق الحبيبان
.. لاكن أبا العلاء ظل وحده يناجي الطيف ويرسل
في سره القبلات التي لن يحاسب عليها لأنها لم

تكتب كما قال :

كم قبلة لك في الضمائر لم أخف
منها الحساب لأنها لم تكتب

وظل في مواجد حرمانه معلقا بين الرؤى والأحلام
والطيوف ... ثم انقلب الحب محبة .. وعشق
الفتى المحروم أمه .. أو لم يجد غيرها حبيبا
مخلصا وفيها .. وأصابته عقدة أوديب .. غير أنها
لم تنضح بسوى العفة والطهارة ونبل البنوة تجاه
الأمومة المثلى .. وحق لمثله أن يستريح على صدر
أمه .. أما نحن - الغارقين في تفاهات الدنيا -
فلنا سراب الصدور الأخرى .. حيث الحنان المزيّف
.. والحب المأجور ..

وسرعان ما يرتد الفتى المحب عن كبريائه ..
طاويا في أعماقه أشواقه وأمانيه .. منسجبا وهو
القوي أمام الدهر الأقوى :

يا دهر يا منجز ايعاده
ومخلف المأمول من وعده
أي جديد لك لم تبله
وأي أقرانك لم ترده

أرى ذوي الفضل وأضدادهم
يجمعهم سيلك في مده

تجربة الدنيا وأفعالها
حثت أخا الزهد على زهده

لو عرف الانسان مقداره
لم يفخر المولى على عبده

أمس الذي مر على قربه
يعجز أهل الارض عن رده

أضحى الذي أجل في سنه
مثل الذي عوجل في مهده

الى آخر هاذة النفثات، المستسلمة على كره واستعلاء
•• أمام دهر لا يرحم •• وليل سرمدي لا يزول :

عللاني فان بيض الأمانني
فنيث والظلام ليس بفاني

كم أردنا ذاك الزمان بمدح
فشغلنا بذم ذاك الزمان

لاكن عاطفة الأبوة ظلت تواكبه وحب الوطن
والمستضعفين لا يفارقه :

الناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض وان لم يشعرو خدم
- ولو اني حبيت الخلد فردا
لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت علي ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظم البلادا ..
وكذلك حب الحيوان والأشياء :

ولا تفجعن الطير وهي غوافل
بما وضعت ، فالظلم شر القبائح
ودع ضرب النمل الذي بكرت له
كواسب من أزهار نبت فوائح

فما أحرزته كي يكون لغيرها
ولا جمعته للندى والمنائح

أما جبايرة الارض فكانو في نظره أهون من
بعوضة وأحقر من ذبابة فقد أصبحو في عصره وكل
همهم « قطع السبيل على ضعيف » ومهاجمة النساء
« ولم يعفو النساء من الهجوم » ..

يسوسون الأمور بغير عقل
فينفذ أمرهم ويقال : ساسة !

فأف من الحياة وأف مني
ومن زمن رئاسته خسارة !

مثل هاؤلاء لا تجوز اطاعتهم ولا دفع الضرائب
لهم :

وأرى ملوكا لا تحوط رعية
فعلام تؤخذ جزية ومكوس ؟!

فهو يرى بحسه الحضاري ، السابق لزمنه ، أن الملك
أو الرئيس تجب طاعته ودفع الضرائب له اذا كان
« يحوط الرعية » بعنايته وينفق عليها مما دفعته
له ، على شكل مشاريع وضمانات ودرء مخاطر ..

ومع هاذا فهم يسمون بأسماء الله وتطلق عليهم
صفاته كذبا وزلفى :

كذب الذي سمى المملك قاهرا
نحن الأذلة والمليك القاهر

وكذاك يدعى طاهرا من كله
نجس ، ويفقد في الانام الطاهر

— لم أرض رأي ولاية لقبو
ملكا بمقتدر وآخر قاهرا

هاذي صفات الله جل جلاله
فالحق بمن هجر الغواة مظاهرا
كم قائم بعظاته متفقه
في الدين يوجد حين يكشف عاهرا
- ويقال الكرام قولا وما في المصن
الا الشخوص والاسماء *
- رويدك قد غررت وأنت حر
بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صباحا
ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء
وفي لذاتها رهن الكساء
- نكذب العقل في تصديق كاذبهم
والعقل أولى باكرام وتصديق
- ما فيهم بر ولا ناشك
الا الى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة
لا تظلم الناس ولا تكذب

— أما اذا ما دعى الداعي لمكرمة
فهم قليل ، ولاكن في الأذى حشد

— أعاذل قد ظلمتنا الملوك
ونحن على ضعفنا أظلم ..

والحل ؟ : طوفان يغسل الارض من دنسهم :

والأرض للطوفان مشتاقة
لعلها من درن تغسل ..

ولم تكن الحياة كما يريد لها ولا الأحياء : فهي
متعددة الوجوه ، وهم كذلك .. وليفعلوا به ما
يشاؤون ، فالله وحده المتفضل المنقذ :

صنوف هاذي الحياة يجمعها
طول انتباه ورقدة وسنة

دنياك لو حاورتك ناطقة
خاطبت فيها بليغة لسنه

ليفعل الدهر ما يهم به
ان ظنوني بخالقي حسنة

لا تياس النفس من تفضله
ولو أقامت في النار ألف سنة

أما الفرق الدينية وقد تجاوزت في عصره
السبعين عدأ فهو يرفضها جميعا ويقف بين بين :

لا تعش مجبرا ولا قدريا
واجتهد في توسط بين بينا

وقد وجد العقل والحظ لا يجتمعان في هاذ
الدنيا فتمنى على الله أن يعكس المقادير والاقدار:

أيعكس هذا الخلق مالك أمره
لعل الحجي والحظ يجتمعان ؟
ولنستمع معه الى حديث الارض :

غذاكم الله مني ثم عوضني
مما لقيت ، فبالأجسام غذاني

وطئتموني بأقدام وأحذية
فقد ادلت ، فتحتي من تحذاني

والى صاحبيه المريضين :

يا صاحبي اللذين استشفيا لضى
ممن تلوذان أو ممن تعوذان !؟

بقراط ، عمري ، وجالينوس ما سلما
والحق انهما في الطب فذان

ثم ألا نسمع صوت المتنبى عبر هاذين البيتين :
يموت راعي الضأن في جهله

ميتة جالينوس في طبه ؟

أما الخمرة - وهي التي تذهب بالعقل - فأفضل
منها كأس صاف من اللبن :

أفضل من أحمر السلاف ومن
كميتها ، ناصع من اللبن

ويا لغرور الانسان حين يطمع بأخيه الانسان •
ها هي نهايتهما سيان :

جاران : ملك ومحتاج أتى زمن
عليهما فتساوى البؤس والترف

ان تركب الخيل أو تضرب مراكبها
من عسجد فالى الغبراء تنصرف

والفقر أحمد من مال تبذره
ان افتقارك مأمون به السرف

يعرى الفقير وبالدينار كسوته

(١) الصيوان : وعاء تصان به الياض •

والموت كحاطب ليل يخبط خبط عشواء
فلنفوض أمرنا الى الله :

رددت الى مليك الحق أمري
فلم أسأل متى يقع الكسوف

فكم سلم الجهول من المنايا
وعوجل بالجمام الفيلسوف

واياك والضغن فان آثاره تبدو على وجه
صاحبه :

وقلما تسكن الاضغان في خلد
الا وفي وجه من يسمى بها كَلْفٌ ..

ولا تفعل الخير تطبعا بل طبعا :

والخير يفعلُه الكريم بطبعه
واذا اللئيم سخا فذاك تكلف

ويطول بنا المقام - هنا - في تعداد روائع
أبي العلاء ونفثاته في مثانيه ومثالثه ورباعياته
وقصائده * وحبذا لو رجعنا الى « سقط زنده » ،
و « فصوله وغاياته » و « لزومياته » و « رسائله »
ولا سيما « رسالة غفرانه » فهناك يطيب المقام وتحلو
المعاشرة ..

عود على بدء :

أشرنا في حاشية الصفحة الأولى من هذا الكتاب الى أننا سنتبع في كتابتنا العربية القاعدة التالية (١)
أولا : ما لا يلفظ لا يكتب مثل : حذفو لم يحذفو
لن يحذفو وهاكذا *

ثانيا : وما يلفظ يكتب بحروفه الأصلية لا
البديلة : كهذا ، مثلا ، وليس (هذا) ، لكن ،
وليس (لكن) الى آخره ..

نفعل ذلك - على الاقل - لرفع التناقض غير
المبرر في الكتابة القديمة * فلماذا كتبوا - قديما -
(هاته وهاتان) مع الألف الطويلة ، و (هذه
وهذان وذلك) بدونها ؟ ثم استعاضو عنها بمدة
سموها خنجرية *** !

لعلهم خافوا من التباس المعنى بين (هتان)

(١) طبقنا شرطاً واحداً من شروطها وهو حذف الالف في الفعل الماضي
لجمع المذكر (كما في كتبوا) والمضارع المجزوم او المنصوب
(كما في لم يكتبوا - لن يكتبوا) طبقنا ذلك في كتابنا « ابن
خلدون » الصادر عن دار مكتبة الهلال ١٩٧٩ - بيروت وها نحن
نطبق القاعدة كلها في كتابنا هذا *

(صيغة المبالغة لانهمار الماء أو الدفع) و (هتان)
(اسم الاشارة للمثنى المؤنث) * * ولم يخافوه في
(هذا أو هذه أو هذان) * * مع انهم يعلمون أن
اللغة العربية تفهم أولا لتقرأ وليس العكس * *

لقد آن للحرف العربي أن يتحرر — على
الأقل — مما يشوه كمال لفظه وجمال صورته *
وهناك من حولنا أمم غيرت حرفها تغييرا جذريا
ليتفق مع متطلبات العلم والفن الحديثين ، وليسهل
على المطابع المتطورة رسمه أو سكه أو حفره أو
صفه أو رصفه * *

واني لأمل من الزملاء — ومن جيل الطليعة
بالات — أن يعتمدوا هذه الطريقة في كتاباتهم
العربية ، لا لأهميتها بعد ذاتها ، بل لأنها خطوة
أولى على طريق تحرير وتطوير الحرف العربي
والكتابة العربية بكاملها ، ولما فيها من روح التحدي
والرغبة في كسر التقليد الذي طالما أساء الى العقل
العربي وشده الى الوراء * *

ملاحظة هامة :

تبين لنا ان هذا الشكل القديم للكتابة العربية

لم يكن معمولاً به الا في المشرق العربي • أما المغرب
العربي فقد اعتمد قديماً (وربما حديثاً) الطريقة
التي ندعو الى اعتمادها في المشرق ••

فقد طالعنا البحاثة الأب اغناطيوس عبده خليفة
اليسوعي بحقيقة كنا نجهلها حين نوه في الصفحة
١٨ من الرسالة - المخطوطة لابن خلدون في التصوف
بعنوان « شفاء السائل لتهديب المسائل » والتي قام
هو بتحقيقها ودراستها قائلاً : « يتصف مخطوطنا
بما تتصف به المخطوطات المغربية من كتابة الكلمات
التي تتميز عن كتابتها في الشرق عادة : فان التاء
المربوطة يعوض عنها بتاء طويلة : مراعات ، نجات ،
مداوات •• وان المغرب يضع كرسي ياء حيث
الشرق يضع ألفا : سئل (سأل) يسئل (يسأل) •
وبدل الألف الممدودة يضع ألفا طويلة : روا ،
يتراء • ويكتب بعض الكلمات بصورة غير
مقتضبة : لاكن ، هاذا ، ذالك » الخ •• (١)

« تم الكتاب »

(١) اقترح اعتماد هذه الطريقة وعمل بها زميلنا وعديلنا المحقق
المعروف الدكتور احمد اللؤساني • اطلب كتابه « نظرات في
تاريخ الادب » الجامعة اللبنانية - بيروت - ١٩٧١ •

٨	عمى لا تشاؤم
١٣	هاذا في الادب
٢٠	الشاعرية
٢٨	هل من حداثة في شعر ابي العلاء
٣٣	ابو العلاء والفلسفة
٤٣	حياته
٤٩	كنيته
٥٣	استاذوه
٥٤	اعاجيب الذاكرة
٥٨	تلاميذه
٦٥	مؤلفاته
٦٨	سقط الزند
٧١	رسالة الغفران
٧٣	موضوع الرسالة
٧٤	رسائل ابي العلاء
٧٧	رسالة الملائكة
٧٨	ملقى السبيل
٧٨	رسالة التذكرة
٧٩	خمس رسائل
٧٩	عبث الوليد
٧٩	الفصول والغايات
٨٠	رسالة الهناء
٨٠	زجر النابج
٨١	رحلاته
٨٥	طريقة عيشه في معتزله
٩٩	ابو العلاء والعقيدة
١٢٢	ابو العلاء والاديب الملتزم
١٢٧	اسلوبه الادبي
١٣٤	العقل امام بل نبي
١٤٥	العقل امام الله
١٥٢	العقل امام الانسان والنفس الانسانية
١٥٧	العقل امام الحياة العملية
١٦٢	هاذا هو ابو العلاء
١٦٥	الى طلاب البكالوريا
١٦٧	موضوع نمونجي منصل.
١٦٨	الافكار الرئيسية — شرح البيت
١٧٦	تشاؤمه
	اسئلة القيت في دورات مختلفة في امتحانات
١٨١	البكالوريا — فرع الفلسفة
١٨٤	نماذج من رسالة الغفران
١٨٦	وصف الجنة
١٨٨	منزل الخطيئة في اقصى الجنة
١٨٩	نماذج من شعره — ضجعة الموت
٢٠٥	عود على بدء
٢٠٦	بلاحظة هامة

هَذَا الْكِتَابُ

أَنَّ لَنَا الْآنَ نَنْظُرُ بَعَيْنِ الْآخِرِينَ إِلَى مَنْ نُوْرُخْ لَهُمْ
أَوْ نَدْرُسُهُمْ مِنْ فَلَا سِفْتَنَا، وَمُفَكِّرُنَا، وَشَعْرَانَا. مَهْمَا
بَلَغَ النَّاطِرُونَ، وَمَهْمَا أَبْصَرُوا .. إِذَا مَا قِيَمَةُ الْبَحْثِ. إِنْ لَمْ
يُضِفِ الْبَاحِثُ جَدِيدًا، يَرَى رَأْيًا، يَسْجُلُ مَوْقِفًا، يَكْشِفُ
مُخْبَأً، يَجْتَهِدُ .. فَإِنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ
أَجْرٌ وَاحِدٌ ..

وَهَذَا هُوَ فِيلْسُوفُ الْمَعْرِ بَيْنَ أَيْدِينَا فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ:
إِنْ لَمْ نَجْتَهِدْ وَنَنْظُرْ إِلَيْهِ مِنْ زَاوِيَةٍ جَدِيدَةٍ، وَلَوْ مُتَوَاضِعَةٍ،
فَمَاذَا عَسَانَا نَفْعَلُ .. وَخَيْرُ لَنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فَنُخْطِئَ، مِنْ
أَنْ يَأْتِيَ الْبَحْثُ تَارِيخِيًّا بَاهِتًا مَكْرُورًا .. وَهَذَا مَا أَرَادَهُ الْمَوْلَفُ.

وَدَارَ مَكْتَبَةِ الْهَلَالِ يَسْعِدُهَا أَنْ تُقَدِّمَ فِي هَذَا الْكِتَابِ
مُحَاوَلَةَ جَرِيئةٍ لِفَهْمِ أَبِي الْعَلَاءِ فَهْمًا مَوْضُوعِيًّا حَدِيثًا ،
فَيَحْتَلُّ شَاعِرُنَا الْمُتَفَلِّسُ مَكَانَهُ الصَّحِيحِ بَيْنَ الشُّعْرَاءِ الْمُنَاطِلِينَ